رواية

الاعتقال فى الدار

د.ايهاب سلام



الاعتقال في الدار

رواية

د . إيهاب سلام

(١)

لا تغادرا داركما ، أنتما رهن الاعتقال ، هكذا قال لهمـا الضابط يوم جاء عند الفجر وسألته شفيقة : وما السبب ؟ .. قال بكبرياء لمحته شفيقة الدري على شفتيه : هـذه أوامـر القيادة ويجب تنفيذها ..

نظرت إلى زوجها ، وهو يستمع إلى كلمات الضـابط ، وخلفه وقفت فصيلة من العسكر ، وسـألت نفسـها : كيـف سأعيش معه وآنا أكرهه ، وكنت أطلب منه أن ننفصل إلـى الأبد . انصرف الضابط ، وترك حارسين عند باب الـدار ،

الضابط ، وترك حارسين عند باب الدار ، ونبه عليهما أن شفيقة الدري وعفت عبد العاطي لا يخرجان من الدار ، من الممكن أن يخرج الطباخ أو تخرج الخادم لقضـاء حاجـات المنزل ، أما هما فلا يجوز لهما أن يغادرا الدار .

انصرفت شفيقة إلى حجرتها ، وهـي تـدرك أن المعتقـل سيكون في حجرتها ، لن تخرج منها إلا إلى الحمام أو دورة المياه ، وأنها عازمة ألا تلتقي به أبداً ، ذلك الرجل المخنث ، ذو الصوت النسائي ، كأنه امرأة ترتدي ثيـاب رجـل . لا

طموح عنده ولا تطلعات . كيف إذن اعتقلوه معها . بئس ما فعلوا ! .. هل يظنون أنه سيكون أنيس سجنها ؟ .. هذا مـا كان ناقصاً .

وصل بها الغيظ من خنوعه وخضـوعه واسـتكانته أن كانت ستطلب منه الطلاق . هي ثورة مشتعلة وهو جليد بارد . كيف تجتمع النار والثلج في دار واحدة ؟ .. هذه هي إحدى سخريات القدر . كانت مشغولة طوال وقتها بالثورة النسائية ، والمطالبة بحقوق المرأة والجهاد في سبيل تحررها ، وهو ليس مشغولاً بشيء . يذهب إلى مكتبه ، ويبقـى فيـه دون عمل يذكر حتى يعود في المساء ، ويـدخل إلـى حجرتـه ويقفلها عليه وينام أو يطلب العشاء فتجهزه له الخادم ثم يأكل ويذهب إلى الفراش وحيداً ، نظام لا يحيد عنـه . لا أهميـة عنده لاستيلاء العسكر على السلطة ، ولا أن الدستور ألغي . أو الأحزاب تمت تصفيتها أو أن الديمقراطية مزيفـة أو أن المرأة مهضومة الحقوق ترزح تحت الواجبـات . رغـم أن ثقافته قانونية ، ويعرف جيداً نظرية الحقوق والحريات العامة ، غير أن كل ذلك ليس مهماً . المهم كلـه أن يظهـر فـي المجتمع على أنه محامي ، ولديه مكتب ولو أنه لا يعمل فيه

، ويعتمد على خمسين فداناً تدر عليه ذهباً لأنهـا مزروعـة بالحدائق . جنة في يدي كسول . ورثها عن أبيه المحـامي . ومنذ اليوم الأول للزواج لا يتحمل نفقة ، ولا يدفع مالاً لأي سبب من الأسباب لكسوتها أو طعامها أو شرابها . إنما هـي تعتمد على إيجار عمارة كبيرة آلت إليها من ميراث والديها . لا تسأل نفسها : ماذا حدث وارتطم في يـافوخي وجعلنـي أتزوجه ؟ .. لكن لا تجد تفسيراً لذلك .
الآن قد استجد ذلك الأمر العسكري أن يتم اعتقالي في بيتـي وهو معتقل معي .. ماذا بعد ؟ .. لا شيء . علي أن انتظـر الإفراج وأخرج إلى ساحة القضاء وأطالب بتطليقـي منـه ، لأني أخشى الفتنة . فقد تزوجني ولم يمسني ولا زلت عذراء . وإذا كان القاضي يريد أن يتثبت فليعرضني على جمع من الأطباء ليقرروا ما إذا ثبت أن رجلاً لم يمسسني فليطلقـوني منه . أما الآن فعلي الانتظار حتى يـتم الإفـراج .. ولعلـه يكون قريباً .
كان صالون أبي الأدبي صالوناً معروفاً قبل الحرب العالمية الثانية . وكان مشهوراً بأنه أبو البنات لأنه رزق بأربع بنات . كنت أنا أصغرهن . وكان الصالون يفد إليه الكثيرون مـن

كل الأصناف حتى النساء . كان هناك الأزهري المتخرج من الأزهر ودار العلوم في نفس الوقت . وكان هناك العلمـاني المتخرج من كلية العلوم . وكان الذي يجمـع بـين الـدين والعلمانية في نفس الوقت من خريجـي الآداب والحقـوق . وكان هناك الجنس اللطيف .

كنت الوحيدة من بنات أبي التي تستمع إلـى الأحاديـث المختلفة من خلف شباك يطل على شرفة واسعة كانت تصل إلي منها الأحاديث ولا أستطيع أن أقرب الصـالون لصـغر سني رغم أنه مكتظ بالجنس اللطيف . وهن نسـاء يانعـات سافرات . ولم تكن أمي في ذلك الوقت على قيد الحياة .وآل أبي على نفسه أن يتفرغ لتربية البنات على الطريقة الغربية جعلهن سافرات متعلمات ثائرات . ورغم ذلك كان يسـتمع إلى من يقول أن المرأة مكانها البيت تقر فيه . وأن لها رسالة فيه . والرجل يتولى أموراً خارج البيت ، ولا يجوز أن يضع يده في مواعين البيت . وكان هناك من يرد عليه ويقول له : إنك تصيب نصف الأمة بالشلل من أجل أفكار وردت إلينـا من ألف ليلة وليلة حيث المرأة عبدة مـن عبيـد السـلطان وجارية من جواري الرجل . استمع إلى الشـيخ الأزهـري

استمع إلى الشيخ الأزهري وهو يقول : إن وضع المـرأة في مجتمعنا لا تحلم به المرأة في الغرب أيا كانت : بنتـاً أو زوجاً أو أماً أو أختاً تراها هناك امرأة داعرة تلعب بها أيدي الذئاب أو زوجة كادحة تأوي إلى بيتها بعد كدح طويل . أو هي أم وضعها آباؤها في دار لرعايتها في أواخر العمـر . ويرد عليه العلماني فيتساءل : أتعتقد أن المرأة في مجتمعاتنا مصونة يحافظ عليها الرجال . إنها تستغل كعبدة من العبيـد أو جارية من الجواري . وقليلاً من الرجال من يكـون فـي عينه حصوة ملح ليكفل المرأة . فكيف لا تعمـل ؟ .. فـإذا كانت المرأة في الغرب مظلومة قيراطاً فهي مظلومـة هنـا أربعة وعشرين قيراطا.

تتدخل امرأة من الحاضرات تقول : إن الرجال يحـاولون تشويه صورة الذين يدافعون عن المرأة . قرأت أن الفتاة التي تعرف بها قاسم أمين المنادي بتحرير المرأة فـي بـاريس . أنها كانت مدسوسة عليه . تمثل دوراً بإتقان . ولا يمكـن أن تكون من أسرة محترمة ففي ظنهم أنه لم يلتق بهـا عرضـاً إنما بخطة موضوعة عمداً لتلعب بعقله كما لعبت بعواطفه . يرد أبي وكان حاضراً دائماً في الصـالون ومحـط أنظـار

الجميع : إن كل من يتحرر من أفكارهم (ويغمز بعينه إلـى الأزهري) يقولون عنه أنه خضع لمؤامرة .

يتدخل الأزهري وقد أحس باللمز : إن قاسم أمين أدعـى علاقته بفتاته على أنها علاقة بريئة . أي لـم تصـل إلـى الفاحشة فهل تصدقون ؟ .. كانت فتاته تخرج معه ، وتـدخل به إلى الأسر الفرنسية ، وترحب به الأسـر وهـي معـه ، ويخوضان معاً النوادي والصالونات فما عيب هذه التقاليد ؟: .. عيبها أنها تتنافى مع تقاليدنا.

يقول أبي : إذن فصالوننا هذا يا سيد هو صالون الفاحشة . يضحك الجميع لفكاهة أبي .

يتدخل رجل آخر ويقول : لا يمكن أن تكون العلاقة بريئة فأي خلوة لرجل بامرأة ليست بريئة بالمقياس الإسلامي .

تتدخل إحدى الحاضرات وهي تقول : المـرأة لا تعطـي للرجل غير ما تريد . فلا الخلوة نافعة . ولا المجتمـع . إن من الممكن في وسط المجتمع أن يرتكب الرجل الفاحشة . ألا تعرفون أن هناك عقوبة على ارتكاب الفاحشة علناً ؟ .. فلا أهمية للخلوة لإثبات الفاحشة . كم رجلاً وامرأة فـي شـقة واحدة ولا تحدث بينهما فاحشة ، لأن المرأة لا تريـد أو أن الرجل لا يريد .

وتتذكر شفيقة وضعها الآن : متزوجة على سنة الله ورسوله ومعها في البيت رجل اسمه زوجها ولكن لا شـيء بينهمـا كأنما لا يعرف كيف يمارس الحب ؟ .. أو كأنه يظـن أنـه فاحشة فيعرض عنها رغم تحقق الخلوة الشرعية .

(٢)

ما ذنبي وقد خلقت هكذا لا رغبة لدي في النساء . قالـت إحدى الفنانات المترددات على مكتبي : لم لا تتزوج يا عفت يا ابن عبد العاطي ؟ .. قلت لها متسائلاً : ممن أتزوج ؟ .. قالت ضاحكة وهي تشاهد شفيقة الدري تخرج من مكتبـي : تزوج شفيقة الدري .

الغريب أني تقدمت إليها وطلبت يدها ووافقت . كنت أريد أن انتهي من مسألة أنني تعديت سن الثلاثين ولم أتزوج . قيـل وقتها إنها شيوعية . وأنها متمردة تميل إلى الثـورة علـى الأوضاع . وأنها ثرية والثروة لن تخضعها لرجـل . غيـر أنني أقدمت على الزواج منها . ولعلها تزوجتني لما سـمعت صوتي النسائي ، الصادر من رجل أملـس ، فظنـت أننـي سأكون أسلس في القيادة من باقي الرجال . ثم فوجئت فـي يوم زواجي أنني دخلت حجرة قلت لها إنها حجرتي التـي لا يدخلها أحد غير الخادم ، وأشرت إلى حجرتها لتخلد فيها إلى النوم . لم أعرف أن علي واجباً أن أدخل بها لم تعلمني أمي ذلك .. كنت أبدو كأني من أغوات الأتراك ، لا ميل للنسـاء عندهم لأنهم منذ الصغر أراد لهم أسيادهم ذلك حتى يكونـوا

خدماً للنساء الراقيات . لم أتصور أبداً أن هذا الوضـع قـد يعذبها . كنت أظن أن الرجل يتزوج المرأة ليحدث الائتناس بينهما فقط . ربما يحدث أن تحبل المرأة . لكن كيف ؟ .. لم تعلمني أمي كيف ؟ .. رغم أنني علمت ذلك في كلية الحقوق حين تكلم الفقهاء عن الخلوة وعن الحمل وعـن الميـراث ، لكن يبدو أنني نسيت أو تناسيت لأن لا تجربة لي سابقة مـع النساء .

أمي تلك التي عشت في كنفها زهاء تسع وعشرين سنة كاملة ثم ماتت . حزنت عليها كثيراً حتى قالت لي تلك الفنانة أن أتزوج لعلي أخرج من حالات الاكتئاب . والآن شفيقة الدري تنام في حجرتها وأنا أنام في حجرتي . ولا علاقة بيننا . هل أمي قتلت في الميل إلى النساء أم أنني ولدت وقد بتر مني هذا الميل أو تم استئصاله دون أن أدري .

الغريب أن العسكر المجانين يصدرون أمر الاعتقال ويجمعنا الأمر معاً . ما لي أنا والثورة أو الجهاد والمطالبة بحقوق وحريات الشعب والمرأة ؟ ! .. لا أحب أن تنزلق قدمي إلى هذا الوحل . لكنها انزلقت بالفعل . وأُخذت بجريرة زوجتي . الغلطة الوحيدة أنني كنت أعرف ثوريتها ولم

أتجنبها ، لم آبه . وصممت على أن أتزوجها . كانت كأنها تكملني . ولا شك أنها وجدت في الصيد الثمين المنشود لأني سأكون خاضعاً خانعاً لها . ولن أفر يوماً من الخضوع والخنوع .

الآن كيف سأدير مكتبي وأنا رهن الاعتقال ؟ .. وكيف سأدير أرضي الزراعية أو حدائقي وبساتيني وأنا سجين الدار ؟ .. وهل أنت تدير شيئاً ؟ .. ما أنت إلا إمعة .

لم يجب ضابط على شيء . قرأ الأمر العسكري . وترك حارسين على باب الدار . وانصرف مع بقية الحرس .

كيف سأقتل الوقت ؟ .. أنا لا أهوى القراءة ، ولا أهوى الكتابة ، ولا أعشق الاستماع إلى المذياع أو الموسيقى ، ولا شيء يستهويني ، سيمر علي الوقت صعباً فعلاً . كنت أقضيه في مكتبي قليل الزبائن ، لكن من حين لآخر يدخل زبون أتكلم معه . ولو أن زميلي في المكتب عتريس الأعشى يقتنصه من أمامي ويتولى أمره ، لكن كنت استمع إليهما وهما يتناقشان في القضية ويمضي الوقت سريعاً . عتريس الأعشى شاعر ، يكتب الشعر بغزارة ، يقرأ بنهم ويتعمق في الكتب ، ويجد وقتاً لكتابة مذكرات القضايا ولا يمل من

الاستماع إلى المذياع . إنه شعلة نشاط لقد كان يكملني فأنا قطعة من الخمول . لأترك له المكتب يديره لحسابي ، واتصل به هاتفياً . وأقول له أن يتصرف في أمور المكتب حتى يصدر إشعار آخر . ولكن أين الحرارة في الهاتف ؟ .. لقد انسحبت . تحولت الدار فعلاً إلى معتقل .

قليلاً ما أراها الآن في البيت . تقفل عليها حجرتها . لعلها تقرأ أو تكتب مقالاتها الثورية . ولا أحاول أن أدنو منها . هل علمتني أمي – دون أن أدري – أن الاتصال بين الرجل والمرأة فاحشة حتى وهما متزوجان لذلك لم تعرفني شيئاً عن الجنس أو العلاقات الزوجية . كأنها كانت تعدني أن أبقى أعزب طوال العمر ولا أخوض تجربة الزواج . ربما كرهت الجنس بعد موت أبي . أو تمكن أبي قبل موته أن يجعلها تبغض الجنس ، فأرادت أن يكون ابنها على شاكلتها بمنأى عن الجنس .

أذكر أننا كنا نسكن في شقة تطل على معسكر إنجليزي . وكانت تحدث فيه المساخر علناً . يعود الجنود ليلاً يصحبون فتياتهم ليمارسوا الجنس في الهناجر . ويصرخان ويصيحان من فرط السكر ويرقصان وذلك في غفلة من القادة الذين

يمضون إلى بيوتهم في وسط المدينة بعد الساعة الخامسة . ولما شاهدت ذلك قررت أمي الانتقال إلى شقة أخرى . كأنها كانت تلقني درساً أن كل علاقة بين رجل وامرأة هي علاقة دنس لا يجوز لأحد أن يقترفها أو يشاهدها .

إن أمي على طرف نقيض مع الدكتورة شفيقة . فبينما كانت ترى أن المرأة مكانها البيت إلا إذا كانت تحتاج إلى العمل . كانت الدكتورة شفيقة ترى أن المرأة مكانها العمل إلا إذا كان البيت يحتاجها . الأولى تعرف شيئاً عن حقوق الفكر والعمل . والثانية تنادي بإعمال الفكر وفتح فرص العمل للمرأة . وتقوية أخلاقها وتحسين أوضاعها في العمل البيت والأماكن الأخرى .

وحتى آخر أيامها كانت أمي متحجبة . أو متبرقعة كما تتبرقع التركيات . وتقف ضد المرأة التي تنادي بالسفور . وحاولت أن تغرز في الإيمان بالحجاب حتى أشب لا أرى المرأة وأغض الطرف عنها ولا أرى غيرها في حياتي .

لكن المجتمع لم يأبه لكلامها . كنت أرى النساء في كلية الحقوق سافرات ، وكنت أراهن في الشارع شبه عاريات . وكنت اسمع أن بعضهن يسرن في شوارع الإسكندرية كأنهن

يرتدين ألبسة البحر . ولم أكن أصرح بشيء من ذلك لأمي حتى لا تتهمني بارتكاب المعاصي .

بل كنت أتكلم مع الطالبات وأصاب بارتباك ، لذلك كان الكلام قصير العمر ، لا يتعدى سطراً لو تمت كتابته . وكنت في نفس الوقت أعود إلى البيت ولا أروي لها نصوص الأحاديث ولا حتى بعضها . التزم الصمت كأني تمثال أبي الهول ، لأني أعرف مقدماً أنها سوف تسفه أعمالي وتسفه العلاقات بيني وبين الطالبات .

كانت الفتيات يقلن إن القضية الآن في أوربا مساواة المرأة بالرجل في الأجور وساعات العمل . ولم تكن تلك القضية قد وصلت إلى مصر لأن المرأة لم تكن قد خرجت إلى العمل بكثرة . وكنت أقول لهن إن القضية في مصر هي الانحراف عن العقيدة . ويجب علينا أن نعود إلى تعاليم الإسلام . لكن كانت دعوتي تذهب سدى لأن واحدة منهن لم تكن لتسمع كلامي . وحينما ابتعد اسمع ضحكهن على تخلفي . ويقلن إنه لا ينقصني إلا الدعوة إلى الحجاب . وقد تحررت المرأة منه فكيف تعود إليه ؟ .. لقد أصبحت سافرة الوجه إلا في المجتمعات الدنيا حيث لا زالت المرأة تتبرقع وتخرج

بالملاءة السوداء تحجب بها مفاتنها . كان ذلك قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها بسنوات قليلة . وكان من رأي أمي – وهي من الطبقة الثرية – أن التمسك بالحجاب هو تمسك بتعاليم الإسلام ذلك لأن الله هو الذي فرض الحجاب على المرأة ولا يجوز أن نخالفه ، لا الله ولا الرسول عليه السلام تجوز مخالفتهما . ولعل ذلك ما جعل أمي تضرب سياجاً من العزلة حولها . وسمحت بالكاد أن أذهب إلى المدرسة ثم الكلية حتى استعمل مكتب أبي المتوفى . وكنت أعود مسرعاً حسب أوامرها من الكلية حتى لا أرى النساء المتبرجات العاريات ، وأفتتن بهن ، كانت تظن أنني قط قد غُمضت عيناه ، ولكني كنت أرى ولا أعبر عما أراه .

(٣)

هذا هو حظها مع الرجال الفشل . حينما ذهبت إلى لنـدن مع صديقاتها الثريات للدراسة - دراسة اللغة الإنجليزيـة - على نفقة آبائهن الخاصة ، تعرفت هناك بمايكـل ، أوحـى إليها أنه أسلم ، وأنه يؤدي فرائض الإسلام بحذافيرها ، ولما سألته لم لم تغير اسمك ؟ .وقال إن اسم ميكائيـل ورد فـي القرآن وهو مايكل بالضبط . غيـر أن زميلهـا المصـري المتقدم علمياً وديع جرجس . وكانت هـي بالسـنة الأولـى الجامعية وهو يدرس للدكتوراه همس إليها أن مايكل يغشـها وأنه لا يزال على دينه وهو يراه كثيراً في الكنيسة وعليها ألا تصدقه . وهو يريد أن ينالها تحت زعم أنه مسلم . وإذا كان أولى بها أن تتزوج فعليها أن تتزوج من مصري يعود بهـا إلى بلدها ويرجعان معاً . وعرض عليها نفسه فقالت له إنـه مسيحي هو الآخر ولا يجوز أن تتزوج مسلمة من كتـابي . وإن كان العكس مقبولاً . غير أن وديع جرجس أمتعض من ذلك . وقال لها إن الدين أفيون الشعوب . وعرفت أنه يؤمن بمبادئ الشيوعية المستمدة من تعاليم كارل ماركس . وبينما

هي تكشف مايكل على حقيقته بمساعدة وديع جرجس ، تراه وهو يدخل الكنيسة ولا تراه يدخل مسجداً من المساجد كانت تتعلم المبادئ الشيوعية من وديع فضحت بمايكـل - الـذي كانت قد أحبته - وعرفت أنه ليس مسلماً إنما يدعي الإسلام . وأنه قرأ - ربما كثيراً أو قلـيلاً - فـي القـرآن الكـريم وتفسيرات المستشرقين لذلك أراد أن يدخل إلى قلبها من ذلك الطريق ، لكن ثبت أنه لا يزال يدين بالمسيحية وبتعصـب . ولم تعد شفيقة الدري تقابل مايكل بعـد أن كشـفت أمـره . وأدركت أنه كان يريد جسدها لا قلبها . وكانت في مقابلاتها ترفض أن يضع شفتيه على شفتيها أو حتى أن يلمس يدها . وكان كثيراً ما يحاول فتصده ، أما وديع جرجس فكان مؤدباً للغاية رغم أن لا أهمية عنده أن يتزوج مسيحية أو يهودية أو مسلمة فهو لا يدين بشيء من الأديان . وبدأ يسقيها تعـاليم الشيوعية بهدوء وروية وصبر . ورفضت أن تشك في دينها أو نبيها المرسل . كانت تمتعض كثيراً عندما يكلمهـا عـن الدين بسخرية ، فبدأ يكلمها فـي المبـادئ الاقتصـادية ولا يتخطاها . تعلمت منه أن العمل هو القيمة الأساسـية التـي تقاس بها الأشياء ، وأن الملكيات الخاصة لا تسـاعد علـى

وجود مجتمع راق متقدم ، وأن طبقة العمال هي التي يجـب أن تسود . وكانت تقلب الأفكار في رأسها . وهـي تـدرس اللغة الإنجليزية مع صواحبها ، وتنتقد الأفكار ، وتقرأ الكتب المتصلة بها وبالنظم الشيوعية . وألمـت بحقـوق المـرأة وحرياتها فوجدت أن الشريعة الإسلامية أعطت المرأة حقوقاً لا تجدها في شرائع الغرب . عندهم لا تتمتع المرأة بالمساواة بالرجل في الحقوق الاقتصادية كالأجر . وإن كانـت تتمتـع بالحقوق السياسية ولذلك رأت أن تنادي عندما تعود إلى بلادها بالحقوق السياسية للمرأة . وتأملت حال بلادها فوجدت أن المرأة هناك مهضومة الحقوق وأن عليها أن تجاهد في سبيل استرداد هذه الحقوق الضائعة والتي اغتصبها الرجل في غفلة من الزمن . وقررت أن تبدأ هذا الجهاد عندما تعـود إلـى مصر . ولما سألت وديعاً : متى تعود إلى مصر ؟ .. قال : أنا لن أعود أبداً . هنا وجدت حريتي . وهناك قد أُحرم منها . سألت : ولم تُحرم منها ؟ .. قال : لأني أجاهر بشـيوعيتي . وهناك من يعتبرون أن الشيوعي مارق . يجب إقامة الحد عليه . أما هنا فلا حد ولا يحزنون . قالت : أنا إذن أقـوى منك لأني سأعود . وسأطالب بحقوق المرأة وحرياتها . قال

: اذهبي

ولو أن عرضي لك قائم .. وهو أن نتزوج .

قالت له ضاحكة : في المشمش .

قال : إذن أحذري التشرد أو الاعتقال .

صدق وديع فها هي معتقلة . تمكنت في الخامسة والعشرين من عمرها أن تحصل على الدكتوراه في الآداب الإنجليزية . وعانت ويلات الحرب العالمية الثانية وهي تدرس في بريطانيا وكانت الحرب قد اندلعت فجأة وسقطت أطنان من القنابل على لندن وهي تدرس على نور شمعة . وعادت شفيقة بعد انتهاء الحرب إلى مصر وهي تشعر أنها أصبحت شخصاً آخر .

تقدمت بأوراقها إلى كلية الآداب لتقوم بتدريس اللغة الإنجليزية فيها وآدابها . غير أن عميد الكلية رفض أوراقها لما شاهد جمالها . عيون سوداء وفم دقيق وبياض ناصع أزداد نصاعة مع ضباب لندن . هزه الجمال وخديها الموردان الحمراوان . وشعرها الحريري الناعم غير المغطى وقرر بينه وبين نفسه أنها سوف تفتن الطلاب بدلاً من أن تعلمهم ، وسوف تقلدها الطالبات في السمت والهيئة

والملبس ، فرفض طلبها . وقال : إنها بـدلاً مـن أن تعلـم الطلاب فسوف تفتنهم ، فأنا أخشى على الطلاب من الفتنة . والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها .

عادت إلى دار أبيها باكية . فضمها أبوها إليه وقال لهـا : لا تحزني حاولي مرة أخرى في السنوات القادمـة . إن هـذا العميد لن يبقى طويلاً على الكرسي . قالت له : سوف أحرر مجلة شهرية . فإذا راجت فسوف أجعلها أسبوعية . قال الأب : وأنا معك . مالي هو مالك .

كانت هي الفتاة الوحيدة من بناته الأربع التي شرفته بتعليمها والتي لم تتزوج ولا زالت تعيش في كنفه . ولم تتباعد عنـه إلا حينما ذهبت إلى بريطانيا لذلك كان يحمـل لهـا معـزة خاصة ، ولم يمانع أن يمدها بالمال ، مفتخراً بهـا . وكـان يفتخر بها لأنها عاشت وحيدة في بريطانيا ولم تعصف بهـا الإغراءات ولم تنحرف رغم أن آراءها لا تعجبه . وكانـت تجاهر بها أمام أصحابه ويسمعها منهم فلا يبدي امتعاضـاً . ولم يكن يوافقها إلا على مطالبتها بحق المرأة في الانتخـاب وحقها في دخول مجلسي النواب والشيوخ . وأن يكون لهـا حقوق في العمل باعتبارها نداً للرجل وباعتبارهـا إنسـاناً .

غير أن رجال العصر لم يكونوا يؤمنون بذلك . وانبرى لها أحد الكتاب يتهمها بالإلحاد والشيوعية وبالسـفور . فكتبـت مقالة في جريدتها بدأته بأنهـا تشـهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله . وأنها لا تطالب بتطبيق النظم الشـيوعية الموجودة في الاتحـاد السـوفيتي إنمـا تطالـب بالعدالـة الاجتماعية وتطالب بحقوق المرأة وحرياتها . أصبحت فـي الآونة الخيرة تجلس بينها وبين نفسها تكرر ذكريات الماضي . ولا تزهق . كأنها ناقة تجتر الماء مـن سـنامها ليـروي عطشها الناتج من حرارة الصحراء العالية . الـذكريات زاد جميل للمرأة الوحيدة أو للرجل الوحيد . إنها المناجـاة فـي زمن الاعتقال . تناجي نفسها بها وتناجي هي نفسها وتلعـن الذين اعتقلوها .

" كنت أسمع في صالون أبي روايات عن النساء البطلات . وكان الشيخ الأزهري صـديق والـدي الـدود يـتهمهن بالمجون . كان البعض يمدح هدى شعراوي بنت محمد باشا سلطان تلك التي سافرت مثلي لكن إلـى فرنسـا لتـتعلم . سافرت محجبة وعادت سافرة . ويوم استقبلها أبوها في ميناء

الإسكندرية ومعه مجموعة من الأصدقاء ، أعـرض عنهـا لأنها خرجت من الباخرة سافرة .

" تدخل العلماني في حديث الأزهري فقال إنها بطلة مـن بطلات النساء المصريات . لقد أقامت صالوناً كان يتجمع فيه رجال الأمة العظماء ، فيرد عليه الأزهري أن هذا الصالون كان يرتاده الصحفيون المرتزقة من أجل كتابة مقالات فـي ذمة ولطاف وابتسامة الهانم العذبة . فيقول له أبـي إنـه لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب . فيؤكد الأزهري : أنا أصوم في رجب . فيضحك الجالسون .

" ينتقد الأزهري ثورة النساء ضد الإنجليز في ثورة عـام ١٩١٩ . وكيف تجمعن حول ثكنات قصـر النيـل وعلـى رأسهن صفية زغلول . وكيف خلعن الحجاب وألقين به فـي الأرض وسكبن عليه الجاز وأشعلن فيه النار كأنهن بذلك قد تحررن .

" قال أبي يرد على الشيخ : هذه عادة كانت تُتتبـع فـي الجاهلية لإعلان الرفض .

" قال الشيخ متسائلاً : هل يجب أن نفعل ما فعله أصحاب الجاهلية من أجل تحرير المرأة .

" قال أبي : ذلك لم يكن علامة على تحرير المرأة إنمـا علامة على اعتراض النساء على استعمار الوطن .

" يقول الشيخ : لقد خلعن الحجاب نكاية في الاسـتعمار . والحقيقة أنهن خلعنه والاستعمار يصفق فرحاً .

"" نظر أبي إلى الجميـع وتسـاءل : هـل رأي أحـدكم الاستعمار وهو يصفق ؟ ..

" ضحك الجميع .. حتى أنا . وأنا أجلـس فـي الشـرفة الواسعة أتسمع كلام الرجال والنساء . وهم وهن يتنـاطحون بعضهم مع بعض في أدب ووقار وأخلاق عالية . ولم يكـن ذلك إلا قبل أن انضم إليهم وإليهن بعد عودتي من لندن .

" في هايد بارك كنت أتجول - أنا وزميلاتي صديقاتي - نستمع إلى الخطباء . . حينما استلفتني مستشرق يتكلم عـن الإسلام . رغم اعتناقي الشيوعية من وجهة النظر الاقتصادية رافضة وجهة نظرها الدينية غير أنني انبريت أدفع الحجـة بالحجة . تكلم عن المرأة بين المسـلمين ، وعـدد مسـاوئ الذكور ومعاملتهم لها ، فقد حرموا المرأة من التفقه في الدين ، والعمل في الدنيا ، ومنعوها من الذهاب إلـى بيـوت الله والتعبد والتعلم ، وأجبروها على الزواج ممـن لا تحـب ،

وجعلوها معتقلة في بيتها وسموا المعتقل مملكة المرأة . لكنها ملكة جردت من كل سلطاتها وأسـلحتها . الآن أنـا ملكـة مجردة من كل شيء حتى الإنسانية . وانبريت أقول للخطيب أن ذلك عمل الإنسان وليس مكتوباً في كتـاب الله . فسـره رجل الدين لصالحه وظلم المرأة .

" فتن الخطيب بي ، وطلب مني أن انتظر حتى ينتهي من خطبته . وجاء يستزيد مني العلم . وأنا الطالبة فـي السـنة الثانية في الجامعة . أكدت له أن الرجال هم الذين ينكـرون إنسانية المرأة ويعتبرونها جارية من جواري الرجل ، تخضع لمشيئته . أما الإسلام فقد كرم المـرأة ، وجعلهـا والرجـل متساويين في الصفات الإنسانية ، عليهما نفـس التكـاليف ويلقيان نفس الجزاء والمصير بما عملت يداهما أو اقترفت .

اندهش الرجل لرجاحة عقلي مع صغر سني . ولم يعرف أنني قارئة نهمة . كنت استمع إلى خيرة المثقفين في صالون أبي ليلاً . وأقرأ بنهم في الصباح إذا لم تكن هناك دراسـة . وكانت مكتبة أبي - التي ورثتهـا مـن بعـده دون بناتـه الأخريات - مليئة بالكتب التي هي نهر لا ينضب ماؤه .

لقد ناقشت - آنذاك ذلك الخطيب - الخطيئـة الأولـى . وقلت له إن التوراة ترجعها إلى حواء ، أما القـران الكـريم فيرجعها إلى آدم وحواء معاً . بل إن ظاهر الآيات البينـات أن آدم عصى أمر ربه . وغوى . وأنه تاب واهتدى . ممـا يؤكد أن الأصل في المعصية هو آدم ، وان المرأة تبعته في تلك المعصية . فرح ماكدوجل إذ يستمع إلى امـرأة ذكيـة مثلي.

" انتقدت ما يجري أو ما جرى عليه العمل فـي الـدول الأوربية من توريث الابن الأكبر . وأخبرت ماكـدوجل أن الإسلام لم يحرم المرأة من الميراث ، وحقها في التملك ومنع الأزواج من الاستبداد بأموال أزواجهن . بل أعطاهن حـق البيع والشراء والإيجار والهبة . كما شرع لهـا أن توصـي بأموالها مثلما لها الحق في أن ترث في أموال والديها .

" حاول ماكدوجال أن ينتقد ميراث المرأة . وأنها تـرث نصف ما يرثه الرجل . قلت له إن ذلك ليس في كل الحالات . وذلك كان بين الأولاد والبنات للذكر مثل حظ الانثيين لأن الرجل مطلوب منه أن ينفق على البيت وعلى الأولاد وعلى الزوجة نفسها والوالدين لو كانا مريضين ولا يعمل أحدهما .

لكن المرأة ليست مكلفة بأن تنفق على أحد لـذلك خـص الله الرجل بميراث أكبر من ميراث المرأة في بعض الأحيان .

سألت شفيقة المدثر طباخها النوبي : ماذا ستطبخ لنا فـي المعتقل يا مدثر ؟ ..

المدثر هو طباخ قديم ، استأجرته بعـد مـوت والـدها ، واستمر في خدمتها حتى بعد أن تزوجت ، ولم يتركها - مثله مثل لواحظ الخادم - حتى بعد أن صدر أمر الاعتقـال الغريب في حقها وحق زوجها بالتبعية .

أجاب المدثر : الحمد لله يا سيدتي أنهـم لـم يصـادروا أملاكك أو أملاك الأستاذ وإلا كنا لم نجد مصروفاً متـوفراً لشراء الأشياء . وإذا كان المعتقل ناراً ، فسوف نحوله إلـى جنة . إننا الشعب الوحيد الذي يصنع من الفسـيخ شـراباً حلواً.

وتتوه مرة أخرى في ذكرياتها : " ناقشني ماكدوجال في شهادة المرأة . وقـال إن شـهادتها لا تُقبـل فـي الحـدود والقصاص . قلت له كيف لا تُقبل ؟ .. إذا حدثت جريمة في مكان لا يدخله إلا النساء كالحمامات العامة أو الأعراس فـي

بلادنا فهل لا تقبل شهادة النساء المطلعات على الحادثة فـي مكان ارتكاب الجريمة وهو مكان مقصور علـى النسـاء .

شعر ماكدوجال بضآلة علمه وهو يسمعني أفند له حججه .

" قلت أذكره بمسألة الميراث بعد أن قرأت فيها كثيـراً . قلت له إن الأبوين - وهما رجل وامرأة - يرثان بالتسـاوي السدس لكل منهما إذا كان المتوفى له ولد والأخوة لأم يرثون من أخيهم الذي لا ولد له ولا والدين بالتساوي . وهنا تـرث الأخت لأم كالأخ لأم يرثان بنص القرآن السـدس . أو يكون ميراث الثلث لو كانوا أكثر من اثنين بالتسـاوي بـين الذكر والأنثى . وهناك حالة تنال فيها المرأة أكثر من الرجل وهي حالة إذا ما مات رجل وترك زوجاً وأبوين فالأم تـرث السدس والأب السدس وترث الزوجة الربع وهو أكبـر مـن السدس ما دام ليس له ولد .

لم يعرف ماكدوجال أنني أقرأ كثيراً في نظريات الاقتصاد الشيوعي وفي نفس الوقت في تعاليم الدين الحنيف . كنت لا أريد أن أكون متحيزة لأحد وأن أفتي عن غير علم . "

(٤)

لم صنعت منك أمك يا عفت امرأة وأنت رجل ؟ .. يبـدو أنها كانت تريد أنثى فرزقها الله بذكر فأرادت أن تشكله فـي هيئة أنثى لتحركه . لذلك سمتني عفت وهو اسم يطلق علـى الإناث والذكور . والأغلب هو الإناث مثـل عصـمت . ودللتني طويلاً على اعتبار أنني أنثى حتى إذا ما مات أبي ، أعادتني من جديد إلى سيرتي الأولى لكن يبدو أنني كالغراب الذي أراد أن يكون طاووساً ففشل ، فلما عاد إلـى سـيرته الأولى لم يستطع ، فأصبح مسخاً ، وهكذا أنا استمر صوتي رقيقاً كأني لم أبلغ . ولا أدري إذا كنت قد بلغت أم لا . فأنا لا أعرف كيف يكون البلوغ . فلم اتصل بامرأة حتى الآن ، وزوجتي شفيقة لم تشجعني على ذلك . هـل أجـرب مـع الخادمة لواحظ ؟ .. إنني ألتقي بها يومياً فـي البيـت ولا تغادره أصبحت معتقلة مثلنا لكن في سجن مفتـوح . إنها تستطيع أن تخرج لشراء الخضـراوات والفاكهـة مـن السوق ، ليقوم المدثر بطبخها . شيخ تقي يطبخ لنا . لكن لا يبقى في البيت يذهب إلى عائلته في المساء . لا يبقى فـي البيت لم يفرض عليه الاعتقال . إنه الوحيد الذي يخرج ليلاً

ولا يعود إلا صباحاً . كأنه موظف في المعتقل الذي صـنعه العسكر . وهو شيخ تقي ورع لا يقبل أبداً هذر لواحظ التـي ألاحظ أنها تغمز له كثيراً فيعرض عنها . كـل مـا بينهمـا الغمز والتقاط الخضراوات والفاكهة منهـا . بيـد أنهـا لا تحاول أن تغمز لي . رغم أن سيدتها شفيقة لا تراها ، فقـد أقفلت عليها حجرتها كأنها أصيبت باكتئاب . لم إذن كانـت ثورتها المضادة ضد الثورة ؟ .. ولم كان ذلك التمـرد ؟ .. وما فائدة مطالبة منكري حقوق المرأة وحرياتها بهذه الحقوق والحريات ؟

كان عفت يجلس يستمع إلى المذياع في حجرة المعيشـة الواسعة ، وذهنه مشغول بتحليل ما حدث وما هـو حولـه . المذياع يصدر أصواتاً لا يسمعها . وهو شارد . تأتي الخادم وتسأل : هل اعد لك فنجاناً من القهوة ؟ ..

يقول : وأين هي النفس التي تطلب القهوة ؟ ..

تقول ضاحكة : فنجان من الشاي ؟ ..

يقول : وأين هي النفس التي تهفو إلى الشاي ؟ ..

تسأل وقد غاظها رده : لم لا تجلس معك المدام ؟ .. ثـم تقول مجيبة بدلاً منه مقلدة صوته الحاد : وأين هـي المـدام حتى تجلس معي ؟ ..

يضحك لفكهاتها ويسأل : هل أنت متزوجة يا لواحظ ؟

تقول ضاحكة : أنا مطلقة يا سيدي . لم أستطع أن أعيش في كنف رجل يضربني ويشتمني ويركلني كل يوم مائة مرة.

يقول متهكماً : أنت إذن من أنصار حزب الدكتورة شفيقة الدري الذي اعتقلنا من أجله ؟ ..

تقول ضاحكة : أنتما رهن الاعتقال . أما أنا فلم تسر علي هذه الأوامر .

يعود للموضوع قائلاً : إذن فأنت طلبت الطلاق فسرحك .؟

تقول : وهل كان ذلك سهلاً ؟ .. طلبت الطلاق ألف مرة فكان يتهكم ويقول عنـدك المحـاكم . وتركتـه يضـربني ويشتمني ويركلني حتى ظهرت آثـار الضـرب والركـل . وشهد الشهود أمام المحكمة بالشتائم وأثبت الطبيب الجـراح فطلقني القاضي لاستحالة العشرة . أكثر الله خيره ! ..

يسأل : ألا تشتاقين للزواج يا لواحظ ؟ ..

تسكت ولا تتكلم ، يفهم من سكوتها أنه دخل منطقة وعرة مليئة بالألغام ، لا يجوز الخوض فيها . يقول شارحاً وجهـة نظره : أنا لا أعرف شيئاً عن الزواج يـا لـواحظ . هكـذا أنشأتني أمي . أريد منك درساً عملياً فيه حتـى أفهمـه . لا أستطيع أن أتفاهم مع الدكتورة .

ترتبك الفتاة وتقول : درس .. المفـروض أنـك الـذي تعطيني الدرس .

يقول : الحقيقة اتضح أنني جاهل . أمي فـي ألـف بـاء الزواج . ولا أجد مدرساً . كنت سأسعى إلى البحـث عـن مدرسة غير أن أمر الاعتقال صدر . وتجمدت كل السـبل . فهل أجد لديك وقتاً لإعطائي الدروس ؟ ..

تقول : في الصباح أعد الإفطار لكما . وبـين الصـباح والظهر أنظف الشقة . وعند الظهر والعصر أساعد المـدثر في الطبخ . وعند العصر أعد لكما المائدة .. كل واحد على حدة . وفي الليل أنام واستريح من عناء النهار .

يقول ضاحكاً : حاولي أن تعطيني الدرس فـي الليـل . أخصمي ساعة واحدة من مشاغلك فـي المسـاء وأعطنـي الدرس فيها .

تسأل بمكر : كيف سيكون الدرس ؟ .. وأين سيكون ؟ ..

يكاد ينطق غير أن الدكتورة شفيقة تظهر عنـد الردهـة الخالية من الأبواب والستائر ، فيسكت على الفـور عنـدما يلمحها . وتمضي لواحظ مسرعة إلى المطبخ كأنها ارتكبـت ذنباً .

تقول الدكتورة شفيقة : أريد أن أتكلم معك .

يقول : تفضلي .. أنا رهن إشارتك .

تقول وهي تجلس مرتدية ملابس النوم ، وقد ارتدت عباءة ستان تلمع . تضم طرفي العباءة حتى لا يظهر بياض ساقيها . : لقد ظُلمت معي .. كان الاعتقال موجهـاً لـي لكتابـاتي الثائرة . فأخذوك بجريرتي . ما رأيك لو طلقتني وأنا أبرؤك من كل ما عليك من نفقة ومؤخر الصداق ؟ ..

يسأل عفت : وهل تعتقدين أنهم سيصدقون أنني طلقتك ؟

تقول : إذا استدعينا المأذون إلى الشـقة وقمنـا باتخـاذ إجراءات الطلاق ، فسوف تتحرر . حينئذ تطلب أن تغـادر الدار وتذهب إلى شقتك تعيش فيها حتى تزول الغمة .

يقول متجاهلاً : اتركيني في البداية أقدم تظلماً للضـابط . يرفعه للمسئولين بفك الحصار عني . ثم بعـد ذلـك ننظـر

موضوع الطلاق . أريد أن اتصل بعتريس الأعشى زميلـي ليكتب مذكرة في ذلك .

تهزأ بعينيها وتقول : أنا اكتب لك المذكرة لكن بشرط أن تبت في طلاقنا على الفور .

يسأل نفسه : لا أدري هل تزوجت شفيقة لأنهـا نقـيض لأمي . أمي كانت محجبة وشفيقة سـافرة . لا أهميـة لديها لأن ترتدي ما يعري مفاتنها أو يبرزها . أمي كانت في مدارس لم تخرج عن التقاليد والمجتمع . ولو أن المـدارس خرجت بعد ذلك عن هذه التقاليد . لكن لم تكن شفيقة في هذه المدارس التقليدية ، بل سافرت إلى لندن - كما عرفت مـن عتريس الأعشى - لتتعلم . هكذا أراد والـدها المتحـرر . أرسل ابنته الرابعة وهي صغيرة حتى تشرب مـن التقاليـد الإنجليزية . وكانت بناته الأخريات قـد تـزوجن وانتهـى أمرهن معه ورفعت عن كاهله مسئولياتهن .

حضرت أمي العهد الذي كانت ناظرات المدارس تنصـح تلميذاتها بارتداء قبعة على رؤوسهن وكن يضفرن شعورهن ضفيرتين ويضعناهما تحت القبعة ممسوكتين بشـريط مـن القماش يربطهما بدقة . ولكـن زالـت القبعـة وأصـبحت

الضفيرتين مكشوفتين ولا شيء يغطي الشعر . وتركت أمي المدارس الثانوية والبنات بدأن يرتدين ملابس قصيرة . ولو أن الجوارب البيضاء تغطي السيقان . قالت أمي إن الرجـال ثاروا يوم كشفت بنات المدارس عن وجوههن . ويوم حاولت المرأة أن تعمل . أكان الـرزق سيصـل إلـى المطلقـات والأرامل عبر الجمعيات الخيرية ؟ .. وأين هم أهل الخيـر الذين يدفعن أموالاً إلى هذه الجمعيات ؟ ..

لقد أشمأزت أمي يوم ُأفتتحت المدارس الثانوية التـي لـم تدخلها . وتذكر أن مدرسة السنية وكانت ناظرتها إنجليزيـة متزمتة فصبغت صبغتها على البنات . وزعم بعض الرجال أن تزمتها خطة مدبرة حتى تدخل الفتاة المـدارس الثانويـة وتبدأ في شرب عصير الفساد ببطء . وقالت أمي إن الفتيات كن يصلن إلى المدارس في عربات مغطاة بالستائر ، ويعدن إليها بنفس الوسيلة . أو كان ولاة أمـورهن يسـلمنهن إلـى المدرسة في الصباح ويتسلمنهن في نهاية اليوم المدرسـي . والآن أختلف الوضع وأصبحن يذهبن على الأقـدام ويعـدن على الأقدام . وقد يتعرضن للمغـازلات والمـداهمات مـن الشباب أو يقابلنهن . كانت تستنكر ذلـك السـفور وتعتبـره

مجوناً . كانت لا تريد أن اتصل بالبنات لأنهن بنات الشيطان في ثياب بشر . لدرجة أنني كنت أتكلم مع الفتيات في الكلية ، وأظن إنهن بنات أبليس يخفين قرونهن وآذانهـن الطويلـة خاف شعورهن الكثيفة المسدلة على وجوههن . كانت أمـي تبث في الكراهية للمرأة لكن قلبي كان يقف على الحياد ، لا يكره ولا يحب . فتوقف عندي كل إحساس بالجنس والسعي إلى المتعة .

كانت أمي متدينة للغاية . تشعر أن الرجل في مرتبة أعلى من المرأة ، ولكنها كانت تمارس العكس معي . فتبـدو فـي مرتبتها أعلى مني ، ولعل صفة الأمومة هي التي جعلت لها ذلك الحق . كانت تتصرف على أنها ضعيفة لكنهـا كانـت الآمر الناهي في بيتها . كأنها تتصرف بما ينافي أفكارهـا . لم تترك لي قيادة البيت بعد أن كبرت ، وجعلتني تابعاً لهـا كما أرادت محو شخصيتي تماماً لتبرز شخصيتها .

كانت مقتنعة أن الأمور المالية والمعاملات المدنيـة مـن حق الرجل . غير أنها كانت تحتجزها لنفسها لا تشغلني بها ، فتدير الأرض وتأمر بالبذر والحرث والـري والحصـاد . ويأتي الفلاحون إليها ليتلقوا منها التعليمات .

كانت مع الفقهاء أن ذاكرة المرأة أضـعف فـي شـئون المعاملات لكنها في نفس الوقت تمارس المعاملات وتحـاكي الرجال ، وتأمر وتنهي . جعلتني أقف بعيداً كأني ملك تجرد من كل سلطاته . ذوبت شخصيتي في شخصيتها حتى كـدت لا أتصرف دون أوامر منها فأين هـي حتـى أتخـذ قـرار انفصالي عن الدكتورة شفيقة الدري ؟ ..

لا أعي شيئاً عن علاقة أبي بأمي ، فقد فقدت الرجل وأنا صغير . وسيطرت أمي على كل أملاكه مثلما كانت تسيطر على أملاكها . وقد تأكدت بمرور الوقـت أن أمـي دفنـت أنوثتها من أجلي كأنها مسيحية دخلت الـدير . قـررت أن توقف حياتها من أجل ابنها . وقتلت شهوتها وغريزتها فـي التجاذب واللقاء مع الرجل . . غير أنها لم تكن تقابل الرجال خلسة ، ولم ترتكب الفواحش ، فدائما أراها علـى سـجادة الصلاة ، ربما كانت غلطتها الوحيدة أنها ربت ابنهـا علـى الخضوع لها . فماذا سيفعل إذا انتهت حياتها ؟ ..

عاشت فعلاً تفيض أنوثة لكن في حدود بيتها ولم أسـمع عنها أنها ابتذلت يوماً . رغم أنها كانت تقابل رجالاً كثيرين مثل مستأجري أرضها وأرض أبي . ومستأجري عقاراتهـا

والمحامين وغيرهم . كانت تفيض حناناً ورقة وجمالاً . لكن لا تعطي الحنان إلا لابنها وتعامله برقـة متناهيـة ، ولا تكشف عن جمالها إلا لابنها . كنت دائماً أتأمل جمالها . ولم أكن أخشى أن أتحول إلى أوديب الذي عشق أمـه . ولعـل الخطأ الثاني في حياتها أنها حولت ابنها الوحيد إلى متشـبه بالنساء ليكون مثلها كأنما كانت تتمنى أن تلد أنثـى فولـدت ولداً . كانت تعامل الرجال وبينها وبينهم سور كبيـر كأنـه حجاب ولا تسمح لأحد أن يتبسط معها . هي تقابلهم محتشمة تتستر في لباس فضفاض ولا تعلن عـن زينتهـا فكانـت لا تبديها إلا في حضوري . كنت أراها ملكة جمال لم أر مثلها من قبل . شعرها طويل وعنقها العاجي الجميـل وذراعاهـا البضتان أهيم بها في أدب وأطيعها في خوف ، لذلك عملـت أن يكون خدمها في البيت خدماً من الإناث .

أنا أتكلم دائماً عن أمي ، ولا أفكر إلا فيها . إنهـا جـزء مني وأنا جزء منها . والمشاكل الجسيمة لا أعيرها اهتماماً . فلا أهمية لطلب الدكتورة الطلاق ؟ .. فكيف أتخذ ذلك القرار وأمي لم تعد على قيد الحياة ؟ ..

(٥)

كان الشعور بالفشل في الحب ذريعاً يوم اكتشفت خبث مايكل . يوم أخذها وديع جرجس إلى الكنيسة ساخراً منها لأنها تعتقد أن مايكل يؤمن بالإسلام ، وأكد لها أنه لا يؤمن إلا بالمسيحية ، ومن ثم لا يجوز أن تتزوجه . وإذا كانت تريد أن تتثبت من كلامه فعليها أن تتثبت من إخلاصه للإسلام . واتبعته في أحد أيام الآحاد لترى مايكل يدخل الكنيسة ويصلي للرب . وفعلاً وضعت حجاباً يخفي وجهها ، ودخلت الكنيسة الكبرى بلندن مع وديع . ورأته يدخل ويقف في الصفوف الأولى ، ويصلي مع المصلين ، استمعت للصلاة ، وقامت ونهضت مع القائمين وجلست معهم . وكانت تفتح فمها على اعتبار أنها تردد ما يردده المصلون وراء القسيس . وخرجت بعد ذلك لتواجه مايكل خارج الكنيسة . وانبثق الدم القاني في وجهه عندما رآها أمامه ، وهي تقول : أتخدعني ؟ .. يقول مايكل على الفور ، وصوته يتهدج ، ولا يزال يرن في أذنيها : لا يجوز أن أجاهر بإسلامي أمام الناس وكلهم من المسيحيين . وتتركه وهي تقول : لا أريد أن أراك ..

يضحك وديع جرجس عندما تروي له الواقعة . ويقول : هو يعد في عرف دينكم من المنافقين ، لكنه فـي هـذه الحالة ينافق المسيحيين . تقول شفيقة : لا .. إنه ليس منافقـاً .. إنما هو مدعي . يقول وديع ساخراً : لعلـه مثالـي . لا يدين بشيء . تسخر منه وتقول : إن إنجيلك هو كتاب رأس المال لماركس . يقول بفخر : وأنا لا أنكر .

لاحقها فشل آخر في الحب ، يوم عـادت إلـى القـاهرة لتجاهد في سبيل نصرة حقـوق المـرأة وحرياتهـا ، يـوم اشتركت في جمعية أنصار المرأة . وطالبت رئيسة الجمعية أن تغير اسمها إلى نصيرات المرأة لان جمع المفرد نصيرة هو نصيرات . أما أنصار فهي جمع نصير . ويطلق صـفة للرجل . اقتنعت الرئيسة بوجهة نظرها ، وقدمت مذكرة بذلك إلى الجهات المسئولة لتعديل اسم الجمعية . غير أن الجمعية كان يعمل بها متطوعون من الرجال . فـرفض المسـئولون تغيير الاسم على اعتبار أن أنصار هي جمع للمذكر والمؤنث في نفس الوقت حينما يجتمعان .

هناك التقت بعابدين الحسيني . أحد الكتبة لدى الرئيسة . وفتنت به . شعرت بأن قلبها يرتبط بـه . كانـت تطالـب

بتحرير المرأة من ربقة الرجل لكن لم تكن تطالب بتحررهـا من الارتباط به . فالارتباط نداء آلي تنادي به المرأة الرجل أو يبثه الرجل للمرأة . ولا سبيل إلى مقاومته .

أحبته وأحبها غير أن الفارق بينهما كان شاسـعاً . هـي حاصلة على الدكتوراه في الآداب الإنجليزية وهـو حاصـل على التوجيهية . أرثها كبير من أبيها الذي ودع الحياة بعـد عودتها بسنة واحدة . وهو لا يملك غير مرتبه . هي تسـكن في دار أبيها ذات دورين تطل على ميدان كبير واسع . وهو يسكن في إحدى حارات حي السيدة زينب يتوه المرء عنـدما يصل إليها وحتى يصل إلى شقته . دارها تتكون من عشـر حجرات واسعة أما شقته فتتكون من حجرتين وصالة صغيرة يكاد شخصان يتصادمان لو سارا في طرقتها . رغـم هـذه الفوارق أحبته . وهو خجول لا يقوى على مصارحتها بمـا يكنه قلبه لها . المفتون بها . لذلك كانت هي البادئة بـإعلان الحب عليه . كما لو كانت تعلن حرباً على دولـة صـغيرة وهي الدولة الكبيرة .

غير أنه تراجع . لم يستطع أن يكون نداً لها . تخـاذل . وخسر عمله بالجمعية وخسر آماله بالتمتع بجمالها وفتنتهـا

وحبها وانسحب من حياتها ليعمل في مكان آخـر . ضـحى بحبه لأنه غير قادر على أن يكون في مستوى ملكة جمـال وثقافة وعلم . كيف يجتمع متوسط الحال والعلم والمال مـع قمة المال والعلم والجمال ؟ .. ورغم أنها لم تقتنع بأسـباب الانسحاب غير أنها - بمرور الزمن - بدأت تقبل حيثيـات حكم عابدين على نفسه بالإعدام . كانـت تريـد أن تحطـم الفوارق بينهما . غير أنه خذلها بعد حب عفيف دام سنتين .

كانت تفكر في عابدين وما كان يمكن أن تحصل عليه من متعة معه لأنهما متحابان . حينما أعطاها عفت عبد العـاطي زوجها مع وقف التنفيذ مذكرة كتبها له عتريس الأعشـى . زميله في مكتب المحاماة . . أعطاها لها لتقرأها وتعلق عليها . كانت عبارة عن تظلم لعفت عبد العاطي من اعتقالـه دون أسباب واضحة . فليس هو عضواً في جماعة سرية ، وهـو يؤمن بالإسلام دون انضمام إلى جمعية الأخوان المسـلمين . وهو يوافق على كل القرارات الصادرة من رجال الثورة . ويوافق على قرارات رئيس الجمهورية ، ويقسم أنـه أول من ينفذها ، ولا صلة له بنشاط نساء مصر فـي المطالبـة

بحقوقهن وحرياتهن . وماذا تريد نساء مصر بعد أن وافـق رئيس الجمهورية على تقرير حـق الانتخـاب والترشـيح للمجلس النيابي للمرأة ؟ .. وكل القوانين تكفل لهن حقـوقهن المدنية وحرياتهن الشخصية . مثلهن مثل الرجال .

نفرت من المذكرة لان الحقوق والحريات التـي أعطـت كانت على الورق وممنوعة من الممارسة فالانتخابات تُزيف وإرادة الأمة لا زالت تحل محلها إرادة الزعيم . أعطتها إليه وقالت : كيف وصلت إليك ؟ ..

قال : طلبت من الشرطي القائم على الحراسة أن يتصـل بعتريس الأعشى ويطلب منه إعداد المذكرة وذلـك حينمـا تنتهي نوبته . وأعطيته عشرة جنيهات فسر ووعد . وعـاد بها ومعها مائة جنيه في ظرف فأعطيت الشـرطي خمسـة جنيهات أخرى جديدة . وقد وعده عتريس أن يسـتمر فـي إدارة المكتب حتى يتم الإفراج عنه . إنه صديق مخلص لـم أر مثله أبداً . قالت تستهزئ به : لو لاه لما اشتغل المكتـب أبداً .

" ربما أرسلني أبي إلى بريطانيا لأنه كان من المـؤمنين بأن تتعلم المرأة حتى آخر مراحل التعليم ، مادامـت قـادرة على ذلك . . ولو أن أختا من أخواتي همست لي أنه يريد أن يتزوج ، ولا يريد عزولاً معه في البيت . رفضت فكـرة أن يتزوج أبي وأنني حاجز بينه وبين الزواج . وتأكد لي كـذب ذلك لما عدت فوجدت أنه لا يزال أرمل لم يقدم على الزواج . وراحت أختي تبرر عدم إقدامه على الزواج بأنه لم يجـد العروس بالمواصفات التي تعجبه فأقلع عن فكرة الـزواج . وثرت وقتها وقلت لها إنها تفتري على أبي . لـم تكـن قـد تعلمت تعليماً جامعياً واكتفت بالمدارس الثانوية لذلك رأيـت أن أفقها ضيق ، يشغل نفسه بتفاهات يصنعها ويجترها .

" كان السبب في أنه أرسلني إلى لندن ، هـو أن التعلـيم الجامعي كان مرفوضاً للمرأة أن تباشره ، فهو لا يتناسب مع طبيعتها ، وسيؤثر على أنوثتها ، وسيشغلها عن الـزواج سنوات عدة . ولكن الامتناع عنه يجعلها تهتم بالأسرة والبيت خاصة إذا فكرت في العمل بعد حصولها على شهادة مقبولة . وأضف إلى ذلك اختلاط الفتيات في الجامعة ، وهو يتنافى مع مبادئ الدين والأخلاق والعرف . لكن والدي كان مصراً

على استمراري في التعليم بعد أن خرجت بنته الأولى مـن المدارس الابتدائية ، وخرجت بنتـاه الثانيـة والثالثـة مـن المدارس الثانوية ، وأصر أن تتخرج الرابعة مـن التعلـيم الجامعي . وكللت جهوده وعطرت أمانيه بأن تخرجتُ فـي الدكتوراه . ذهبت قبل الحرب العالمية الثانية وعشـت فـي لندن وهتلار يخربها . وعدت بعـد انتهـاء الحـرب ، وقـد حصلت على الدكتوراه . غير أنه لـم يهنـأ بعـودة ابنتـه الحاصلة على الدكتوراه فقد ودع الحياة .

" هناك رأيت تعليماً مختلطاً والاختلاط ليس في الجامعـة إنما في كل مكان . والحرية تنادي بهـا المـرأة . وتسـمح التقاليد للمرأة أن تجرب حتى الفاحشة . ولكني لم أجرب إنما فقط تعلق قلبي في عفة . كنت أستطيع أن أحمي نفسي فـي لندن ، فلم أحاول خوض الانحلال الذي كانت عليـه بعـض الفتيات . واحدة فقط من سبع بنات كن معي فـي سـفرتي . هي التي فسدت . فطغت عليها الشهوة وانتصر الحيوان فيها على الإنسان . وضاع حياؤها وثلم عفافها . وأخذت تتوارى عنا حينما حملت من رجل كانت تراقصه صدفة لا تعـرف عنه شيئاً أخذها إلى شقته فـذهبت معـه طواعيـة وهنـاك

أغتصبها . ولما حملت أجهضت نفسها . ظهرت من جديـد في مجتمعنا وقلت لإحدى صديقاتي أن أباها لو عرف لذبحها . قالت : لعله توقع شيئاً من ذلك فقذف بها إلى هذا الأتـون مثلما ألقى بنا آباؤنا . قلت لها : أبداً . إن أبي أرسلني إلـى هنا لأتعلم لأن لا سبيل إلى أن التعلم في مصر تعليما جامعياً . تساءلت : لو لم تتمكن من إجهاض نفسها فكيـف كانـت ستعود إلى مصر وهي تحمل ابناً غير شـرعي . . قلـت : ربما كانت ستبقى وسيسمح لها على أساس أنها تربي طفـلاً ولد على الأراضي البريطانية أو كانت ستلقي بالطفل في سلة القمامة ولا من رأي ولا من سمع .

" تجنبت وأنا أعاني الفراغ تلك الحفلات الماجنة . وكنت أرفض أن أرافق ماكدوجال إليها قبل انفصالنا . كمـا كنـت أرفض أن أرافق وديع جرجس وهو يسري عني . حتـى أن أحد صديقاتي قالت لي : سوف لن تتزوجي أبداً . وسـوف تبقين عانساً إلى آخر العمر . قلت : الشرف خير من الزواج غير الشرعي .

كن يذهبن إلى المراقص في أيام الآحاد . وكنت أخلد أنـا إلى قراءة الكتب الاقتصادية العميقة رغم أني تخصصت في

الآداب الإنجليزية . وكن يعدن فازعات من الغارات الجوية التي كانت تصب فيها ألمانيا القنابل على لندن . ويهرعن إلى الخنادق غير أني لم أكن أهتم . كيف يستمتعن مع هذا الفزع والهول ؟ .. أوقد شمعة من الشمعات الكبيرة وأسدل الستائر حتى لا ينطلق النور عبر النوافذ فيبين مكاني للطائرات . واستمر في القراءة تحت ذلك الضوء الخافت كأني دفنت في منجم أو محجر تحت الأرض والظلام الدامس لا يعوقني .

" لقد كنت أرى من حولي فتيات كثيرات جامعيات وعاملات يتزوجن ، ولا يستمر زواجهن فترة طويلة ، ويكون مصيرهن الطلاق . وإذا ما رزقت فتاة منهن بطفل ، فهي تشقى به ، خاصة إذا خذلها الرجل . وإذا لم ترزق فتبقى مطلقة فترة طويلة من الدهر . بل كانت منهن من تمارس الجنس وتحبل ، ولا أهمية عندها أن ترزق بأطفال . لم أفكر يوماً أن أمارس الجنس مع أحد ، وعشت طاهرة . لا خوفاً من أن أرزق بطفل ، أو يدعي زوجي الشرقي فيما بعد أنني لست عذراء ، إنما لأني كنت أومن أن ممارسة الجنس مع أي رجل لا تربطني به صلة هو عهر وسقوط .

" العجيب أن بعد عودتي إلى مصر كانت الجامعـة قـد اكتظت بالفتيات .

" منذ اليوم الأول لزواجي بدأت أهفو إلى الطلاق . فهـو خير وسيلة لبتر العلاقة الزوجية الجدباء ، لقد كـان يبـدو كالأبله ، يعود من مكتبه ولا يقترب مني ، ولا حتى يقبلني ، ويدخل إلى حجرته ، لا يخرج منها إلا إذا كان ينوي العودة إلى مكتبه ، كأنه لا يدري شيئاً عن طقوس الزواج .

كان علي أن أتجرع الدواء المر ألا وهو طلب الطـلاق ، لكن إذا ما طلبت منه الدواء نظر إلى ببلاهة كأنه لا يعـرف طقوس الزواج ولا يدري شيئاً عن طقوس الطلاق كأنه لـم يتلق شيئاً عنها في الكلية التي تخرج فيها . ماذا أفعل مع هذا الأبله ؟ .. لا يبدو أنه ينفر مني ، ولا يتعلـق بـي . أمـن الممكن أن تكون أمه ربته على أن لا صلة له بالمجتمع مـن أي زاوية . ألا يدرك أنني لا أرتاح إليه ولـم أعـد أطيقـه فيسرحني .

لقد احسن اختياري كزوجة فأنا أملك المحاسن الأربعـة . المال والحسب والجمال والدين . لم أفرط في دينـي قـط ،

رغم ما يقال عني أنني شيوعية فأنا من المؤمنـات بالعدالـة الاجتماعية والعدالة التوزيعية في الدخول . ولكن وجدت فيه مساوئ أربع : البخل والصمت والعنة والحياء .

(٦)

فتح عفت نافذة مجاورة لباب الخـروج ، ونظـر وهـو يتلصص ، فطل عليه أحد رجال الشرطة الحارسـين علـى الباب ، حتى لا يهرب المعتقلان خلسة . دفع بورقة صغيرة مقدارها عشرة جنيهات ، وقال للحارس : أذهب إلى الأستاذ عتريس المحامي وأعطه هذه الورقة . تسلم الحارس الورقة وهي تبلغ الجنيهات العشر ، وقال بصلاف : ليس فـي ذلـك الوقت . وسمع عفت يقول بأدب جم : أعرف . بعد انتهـاء نوبتك . ودس الحارس الورقة والجنيهات العشرة في جيبه . وعفت يقول في سره : خسارة فيك . كأنه يقول لي صـدقة وأنا سيدك .

دخل إلى حجرته ، وقفل الباب عليه . الرشوة هي إحدى حيل عتريس الأعشى . لم أكن بالجرأة التي تدفعني لأن أدفع رشوة . علمتني أمي الخجل بل بثته في . أو لعلها حقنتني به حتى اختفت الرجولة التي تجري في دمي . وماتت الشجاعة . قليلاً من الشجاعة تلك التي علمني إياها عتريس الأعشى . تعرفت به في كلية الحقوق . ووعدني أن يأخذ بيـدي فـي طريق المحاماة لأنه يعرف أنني لن أكون محاضراً جيداً في

الكلية بسبب ذلك اللسان الذي لا أملك ناصيته . ولن أكـون وكيلاً للنائب العام لأن خجلي يجعلني لا أتمكن من مخاطبـة المجرمين . وإذا ما فتحت مكتب المحاماة فليس علي إلا أن أتركه لعتريس حتى يديره وأنا أكسب من وراء مجهـوده . وهو لن يطالبني بغير أتعابه . لن يلتهم كل أمـوال القضـايا إنما سيترك لي نصيب الأسد وتكفيه الفتات .

عتريس الأعشى هو الذي حرضني على الـزواج لكنـي كنت ملتصقاً بأمي كثيراً التصاقاً لـم يفصـمه إلا المـوت . كانت هي التي تقرأ معي كتب الدراسة وتفسر مـا غمـض علي . واستمرت حتى في كلية الحقوق تقرأ معـي الكتـب الكبيرة التي قد تصل إلى تسعمائة صفحة . غير أنني لم أفكر في الزواج حتى لا يحدث مكروه لأمي . كانت متعلقة بي . وإذا فكرت أن أتركها فقد تمرض وتموت . تزوج عتـريس الأعشى فتاة وصفها - فيما بعد - بأنها رعناء . أنجبت لـه بنتاً . وطلبت الطلاق لأنها لا تستطيع أن تعيش مع شـاعر فوضوي الطبع ، وحصلت على حضانة ابنتها . ولم يفعل عتريس شيئاً ضدها لأنه إذا فعل فسوف يؤذي ابنته ، لـذلك أطلق لفكره العنان في هجاء تلك المرأة بل هجاء كل النسـاء

. وصفها في أشعاره بالقديسة الفاجرة . عرض علي القصيدة أن أقرأها لكنها كانت طويلة لدرجة أنني عجزت عن قراءتها . كانت من نوع جديد . نوع من الشعر القصصـي . كنـت أريد أحداً يقرأها لي . فأنا مستمع قدير ، وأحفظ ما استمع له ، لكني قارئ رديء أمل من القراءة . لذلك كانت درجـاتي في الليسانس عالية ، لأني استوعب ما تقرؤه أمي علي ومـا يحاضر به أساتذتي في المدرج .

طلبت منه أن يقرأ القصيدة لي ، غير أنه كان من هؤلاء الشعراء الذين يلقون قصائدهم ولا يقرؤونها ولما طلبت منـه أن يلقيها . اعتذر لأنه لا يلقي قصائده إلا في جمع غفير من الناس .

جاءت لواحظ تطرق الباب وتسأل : أتريد أن أعـد لـك الشاي ؟ ..

قلت لها بأسف : أنا لا أشرب الشاي .

وأكملت بيني وبين نفسي : لأن أمي لم تكن تشربه .

قالت : أعد لك فنجان قهوة .

قلت بأسف : أنا لا أشرب القهوة .

ولم تعرف طبعاً أنني لا أشربها لأن أمي كانت لا تشربها . وأنا ابن أمي كما كانت تدعوني خالتي .

دخلت لواحظ رغم ذلك . وقفلت علينا الباب . وقالـت : السيدة الدكتورة نائمة . تقوم من النوم لتنام مرة أخرى . هل أستطيع أن أعلمك أو أدربك عما تريد ؟ ..

قلت : وهل ذلك سوف ينقلني من وضعي الحـالي إلـى وضع أحسن ؟ ..

قالت لواحظ : ذلك أمر مؤكد . لكن لا تعارضـني فـيم اطلبه منك .

قلت : ابدئي يا لواحظ . ربما يكون على يديك الشفاء .

لم أكن أظن أن لواحظ مدربة ماهرة بهذه الدرجة . كنت أشبه بضفدع لم يخرج أبداً من مستنقعه الآسن . وفجأة خرج من المستنقع وطفق يقفز ويقفز . شعرت بحيوية لم أشعر بها من قبل . كنت كشخص كُتمت أنفاسه وأودع في حجرة مليئة بالغاز الخانق . وفجأة شعر بهواء قوي منعش يصطدم بأنفه فيفيق من اختناقه .

بحثت عن الأسباب في هذا التردي الذي كنت أعيش فيه . فلم أجد غير أمي . هي التي جنت علي . غيرت من طبيعتي

كرجل إلى طبيعة أنثوية . دللتني . قيدتني . وجهتني . فصرت في طريق شاذ . لم أكن فيه مثل الآخرين .

لما انتهينا ، وأنا أشعر بفيض عارم في نفسي . سألت لواحظ : ألا نرتكب خطأ ؟ ..

قالت لواحظ بلا افتعال : أنا أدربك على الحياة السوية . فأين هو الخطأ ؟ ..

لم تطلب شفيقة الدري مني الطلاق مرة أخرى ؟ .. لم تكن المطالبة لتنفع . ربما لأني طبقت دروس لواحظ عليها ، تلك التي دربتني عليها كثيراً . لقد علمتني ما لم أكن أعلمه . كيف غاب عني ذلك ؟ .. إن أمي حاصرتني لدرجة أنها منعت عني كل ما يتعلق بالنساء والحياة الزوجية . وغاب عني ما درسته في كلية الحقوق لدرجة أنني أنكرت أنه يمارس في الحياة العملية . سقتني أمي علماً هو الجهل بعينه . كأنها كانت تريد أن تصنع مني راهباً ولا رهبنة في الإسلام . ألم تعرف أمي أنها ستموت وأنها سوف تتركني أواجه المجتمع دون علم أو قدرة على العمل أو حتى علاقات اجتماعية . وأن علي يوماً أن أتزوج وأن أمارس الحياة

الزوجية كما أراد الله لكل رجل وامرأة . وكما مارستها هي مع أبي .

لعل السبب الرئيس لطلب الطلاق هي تلك المتعـة التـي حرمت شفيقة منها . لكن كان هناك مطالبة جديدة بالطلاق . ربما بسبب أنني لا أنفق على البيت . هكـذا اكتشـفت مـن تلميحاتها .

قالت لي وأنا أدخل بها : أتظن أنك رجل ؟ ..

قلت مستغرباً : ومن أكون ؟ ..

قالت كأنما تقذفني بحجر : أنت مجرد حياة هلامية تعيش . تأكل وتشرب وتنام . والآن تريد أن تمارس الجـنس . لا عقل يفكر ولا جسد يعمل . ولا مجتمع تعيش فيه .

سألت : كيف ؟ .. ألا أذهب إلى المكتب وهناك اسـتقبل العملاء . أم أنك تظنين أنهم عملاء الاتحاد السوفيتي . وليس زبائن للمكتب .

قالت تتهكم : ألم تتعلم في كلية الحقوق أن الرجل ينفـق على بيته . قل لي متى دفعت ثمن ما تأكله أو تشـربه ؟ .. ومتى دفعت أجرة الخادمين ؟ ..

سألت متجاهلاً : ولكنه بيتك .. شقتك ؟ ..

قالت : يا سلام .. والعقد الذي أبرمته معي أمام المـأذون لا وجود له ؟ .. هل كان عقداً صورياً ؟ ..

أصيبت بالحيرة هذا ما سمعته في كلية الحقـوق ولكنـي نسيت أو تناسيت . لها حق فيما تقول ولكن الحيـرة أعقبهـا خمول ونسيان . من أي عجينة صنعتُ ؟ .

(٧)

لما مات الحب للمرة الثانية في قلـب شـفيقة الـدري ، تفرغت للجهاد الأنثوي . - كما كانت تسميه - وهو التحرر من قبضة الرجل . لذلك اتصلت بصديقها فخـري الـوراقي وطلبت منه أن يعد ميزانية مجلة شهرية عن النساء . وكـان فخري صديقها منذ الدراسة الثانوية ، ولـم تنقطـع بينهمـا الصلة إلا حينما سافرت إلى لندن لدراسة الـدكتوراه . ثـم عادت لتجدد الصداقة وتجده قد تخرج من كليـة التجـارة ، واشتغل مديراً للحسابات في جريدة معروفة يومية ، تتبعهـا مجلات كثيرة . ولما قابلها في أحد المطـاعم المشـهورة ، عرض عليها ميزانية المجلة الشهرية ، هزت رأسها وقالت : أنا معي نقود تكفي . قال فخري : وأنا لا مانع عندي من أن أدير لك حسابات المجلة في المساء بعد انتهاء عملي بالجريدة . قالت : وكم ستأخذ ؟ .. قال فخري : أنت تحرجينـي يـا شفيقة . كيف أقدر ؟ .. قالت شفيقة معترضة : العمـل هـو العمل يا فخري . لا صداقة في العمل . يـوم أن اسـتغني عنك سوف أقول لك وتستمر صداقتنا .

وذهبت شفيقة يوماً تعرض فكرة إنشاء مجلة للمرأة علـى زعيمتها في الكفاح النسائي . وجلست تستعرض معها الفكرة . قالت الزعيمة مرحبة : أنا سأسـاهم معـك فـي إصـدار الجريدة يا شفيقة . (وكانت تتجاهل أنها دكتورة في الأدب الإنجليزي) . وسأكتب لك والعضوات معي سوف نغـذيك بالمقالات التي تطالب بحقوق المرأة .

قالت شفيقة : جئت إليك باعتبارك رائـدة كفـاح المـرأة لأطلب منك هذا الطلب ، فأنا لا يمكن أن اكتب المجلة مـن الصفحة الأولى إلى الصفحة الأخيرة . أريد أن نكتـب عـن المرأة حقوقها وحرياتها السياسية . حقها في العمل . حقهـا في حضانة أطفالها . حقها في ألا تتعدد الزوجات .

قالت الزعيمة ضاحكة : وحقها في اختيار شريك حياتها .

لا تدري كيف تسرب تعلقها بكاتب الجمعية السابق ، رغم أنها لم تغرم به علناً . وهاهي تستقي من كلام الزعيمة لمزاً . وكانت شفيقة تعرف أن الزعيمة تزوجت برجـل أصـغر منها سناً . فراحت تنظر إليها كأنما تقول لها لا ترمي الناس بالطوب وشقتك من زجاج . . وهمست لنفسها : نعـم لـي الحق في اختيار شريك حياتي لذلك لا يجوز إذا ما اقترنـت

بمن سوف أتزوجه لا أجد تقريعاً من أحد . قالت الزعيمـة تغير من وجهة الحديث : الموضوعات كثيرة . وسبل الكفاح متفرعة . المهم أن نكتب . ونوزع المجلة .

تم توزيع المجلة بالكامل . غير أن السلطات لـم تـرض عنها . ودخلت في حرب مع الحكومة لم تهدأ حتى بعـد أن استولى العسكر على الحكم .

نهضت شفيقة تنتشل نفسها من أفكارها . واتجهـت إلـى عفت . وهو يجلس واضعاً إصبعه بالقرب من فمه كأنما عاد إلى عهد الرضاعة . وقالت : تتقدم بتظلم للسـلطات بشـأن اعتقالك ولا تفكر أن تتقدم بتظلم عني .

أسهم عفت قليلاً ثم قال : لنخطر عتريس أن يتقدم بالتظلم . كيف فاتني ذلك ؟ ..

قالت : إن أشياء كثيرة تفوتك يا عفت بك .

قال عفت : يا دكتورة شفيقة أعـذريني . حينمـا يـأتي الطوفان يضع الإنسان ابنه تحت قدميه لينقذ نفسه .

سألت عفت وهي تتلفت حواليها متصنعة الخوف : وأيـن هو الطوفان ؟ ..

شردت بفكرها تناجي نفسها : لما بلغت الثلاثين ظننت أن القطار قد فاتني . وأن الزواج أصبح أثراً عفا عليه الـدهر . لكن اتصالي بمكتب عفت عند مصادرة عدد من أعداد مجلتي أحيا الأمل من جديد . فهناك محـامي نابـه هـو عتـريس الأعشى وله سابقة في الزواج ، يمكن أن أقترن بـه ، فمـن تزوج من قبل لا يتردد في الزواج مـرة أخـرى . وهنـاك محامي خامل – صاحب المكتب – هو عفت عبـد العـاطي وليس له سوابق في الزواج ولا في الحب . غيـر أن الأول يهرب من الاقتران بأنثى . يحارب الماضي . علمته زوجته الأولى ألا يقترن بامرأة من جديد . والثاني مستعد أن يجرب الاقتران بأنثى لكنه لا يعرف شيئاً عن الحياة الزوجيـة ولا كيف يمارسها . لما عرضت عليه أن ينتقل إلى داري ويعيش معي زوجاً وافق على أن يحتفظ بشقته . ثم لما عاين الـدار طلب أن تكون له حجرة خاصة به ، لأنه تعود على أن ينام في حجرة أمه ، ولما ماتت أمه تعود أن ينـام وحـده . ولا يمكن أن يعود للنوم مع أحد . . وافقت على ذلك . ولم أكـن أعرف أن يوم الزفاف سوف يدخل حجرته ولا يخرج منهـا إلا ليفطر ويتجه إلى مكتب المحاماة ليمارس خموله الدائم .

شعرت أن الرجل يحتقرني في البداية ، فأين هي السكينة والمودة والرحمة التي يطلبها منه الله سبحانه وتعالي . ولم لا يقوم بواجباته الزوجية ؟ .. وربما العذر أنه لم يتزوج مـن قبل . ولم يعتذر على ما فعل ويفعل لأنه لا يعرف ماذا يريد مني . . لغز غامض صادفني في أول حياتي الزوجية .

أيظن أنني كنت امرأة غير صالحة ، ولهذا أقـدم علـى الزواج مني ؟ .. حتى يعذبني . أم يظن أنني لن أكون زوجة صالحة ولا يعرف كم كنت أوعد نفسي أن أجعل له أسـباب السعادة هو الصموت الخجول الخامل الكسول . كنت أريد إذا نظر إلي سر من وجودي ، ولكني تحولت إلى عبوس لما لم يبد أي تقدم نحوي . وكنت انتظر منه أن يأمرني ، فأصبحت انتظر حتى أتمرد عليه ، ولكنه لم يصـدر إلـي أي أمـر . وكنت عازمة أن أصون غيبتـه ، لكنـه جعلنـي أفكـر أن أخونه ، وأن اغتصب عم المدثر ، رغم أنه رجل كبير السن وتقي وعفيف . ولكن لم أقدم على هذه الخطوة أبـداً . إنـه هكذا جعلني أفكر . وأدركت بعد سنوات أنه لا يشـعر أنـه رجل ، وأن الأنثى لا تعني له شيئاً . كأنما اجتماعه بها إنما

هو اجتماع بين صديق وآخر . لقد تم تجريده من الرجولـة حتى أنه لا يشعر بها ولا يتصرف على أساسها .

تذكرت حديثاً للرسول عليه السلام : من سعادة ابـن آدم ثلاثة . ومن شقوة ابن آدم ثلاثة . من سعادة ابن آدم المـرأة الصالحة والمسكن الصالح والمركب الصالح . ومـن شـقوة ابن آدم المرأة السوء والمسكن السوء والمركب السوء . فأنا يا رسول الله أصلي عليك وأسلم وقد صادفت الرجل السـوء والمسكن السوء والمركب السوء . فأشقاني الرجـل السـوء وامضني المسكن السوء وجعلني أعاني الاضطراب المركب السوء . ذلك الذي أركبه مع الرجل السوء . لكن هـل هـو رجل سوء . هل هو سيئ ؟ أعتقد أنه مريض . ولا حول له ولا قوة .

لقد اكتشفت فعلاً أنه على غير دراية بـأمور الزوجيـة . تناسيت أنه لا يمارس معي الحب . ولكن لم أتنـاس أنـه لا ينفق على البيت . كأني أمه لا زالت تنفـق عليـه . ألـم يدرس في كلية الحقوق كل الحقوق وأولها واجب الرجل على المرأة في النفقة فالرجل مكاف بتـوفير المأكـل والملـبس والمسكن والعلاج لامرأته . ألم يدرس ذلك ولم يع الدرس .

لم أحاول أن أناقشه في ذلك . اعتبرته كماً مهملاً فـي البيت . صرت أنا الذي أصرف على البيت ، أعط لـواحظ المال لتشتري الخضراوات والفاكهة والخبز وغيرها وآمـر المدثر أن يطبخ ، وأنا الذي أعطي الخادمين أجرهما . وهو سادر كأنه لا يدري . هل هو أبله ؟ .. أم أنـه يـدعي البلاهة ؟ ..

كنت أقول لماكدوجال إن الإسلام أبقى للمرأة شخصـيتها المستقلة المتميزة . وشخصيتها المدنية لا تنتقص بالزواج ولا تفقد أهليتها للعقود والمعاملات وسائر التصرفات الأمر الذي قد لا يتوافر في بعض المجتمعات الأوربية . ولكني الآن أنا الرجل وزوجي هو المرأة . لا أدري كيف تحول فجأة إلـى رجل بعد طول انتظار ؟ ..

(٨)

علمتني .. دربتني .. وتريد أن أكون عبداً لهـا . متـى تطلبني فعلي أن ألبي . كيف أطردها وهي تقضي لنا حاجات البيت من السوق تسمح لها الشرطة بالخروج والدخول . فهل إذا استبدلتها بأخرى توافق الشرطة على أن تخرج أو تدخل . وربما الشرطة وضعتها معنا لأنها تثـق بهـا . تمنعنـي الشرطة أن أخرج أنا وشفيقة فقط أو ندخل . لكن هل استمر عبداً لتلك الخادمة ؟ .. إنها تأمرني فأطيع . أحس بأني دمية في يدها . تقول كلمة السر وشفيقة تخلد للنوم : هيا أدربك . وأطيع دون مناقشة . ولم أكن أفكر أنها قد تحمل مني . ربما - هي ماهرة - تأخذ احتياطاتها لأن في بعض الأحيـان لا تأمرني بالرضوخ لإرادتها . وتتركني أسـبوعاً أو اكثـر لا تقترب مني . ثم تعود بقوة ونهم . وتنتزعني مـن حجـرة المعيشة بينما شفيقة لا تعتني بي مثلها . إنها الآن تتقبل مني الحب لكن بمجرد أن اخرج من حجرتها تنسى أن لي زوجـاً وتعود إلى كتابها الذي تؤلفه . كتاب جديد عن حقوق المرأة وحرياتها العامة . مراجعها كثيرة في حجرة نومها ما بـين إنجليزية وفرنسية وعربية . تقرأ بنهم .. وأنا لا أقرأ أبداً .

وتكتب بلا توقف وبشراهة . وأنا لا اكتـب سـطراً . جثـة هامدة ليس لها عمل إلا ممارسة الذكورة . بالإضافة إلى مـا كانت تمارسه في السابق تأكل وتشرب وتلبس وتستحم وتغير ملابسها ثم تنام . كان عتريس ينتقدني دائمـاً . ولـم يكـن يعاملني كأجير عندي إنما كان يعاملني كشريك في مكتـب . ويتقاسم معي الأتعاب لا ينتظر أن نتحاسب . كانـت أمـي الثرية الحنون لا تريد أن أعمل حتى لا أغيب عن نظرهـا . الآن لا أستطيع أن أفسر حبها لي ذلك الحب الـذي يحـيط الحبيب بقوة ولو أختنق . غير أن عتريس زميـل الدراسـة أقنعها بأن يعمل معي . أن تفتح لي مكتب أبي وأن يشاركني فيه بالعمل . ولا تخف علي من تعامل الناس معي . كانت تريد ألا أتعامل مع الناس حتى أتقي شرهم . غير أنه أقنعها أنها لن تبقى إلى الأبد وأن عليها أن تدفع بـي إلـى سـاحة العمل وإلا قاسيت في المستقبل . وقبلت بعد أن تعب معهـا كثيراً . ولم أتخذ خطوة فتح المكتب إلا بعـد إلحـاح مـن عتريس لأمي حتى وافقت أخيراً . وكان عتريس الفقير لا يمكنه أن يفتتح مكتباً من نفقته الخاصـة . وصـار لـي حاميان . حامي في البيت . وحامي في العمل .

كان عتريس يستقبل الزبائن . وأنا اتفق معهم على الأتعاب . لم يكن يحاول أن يخفض من قدري أمامهم أو أن يسخر مني . رغم أنه يعرف أنني لا أقوى على تركيب جملتين . ولا يعرف كيف كنت أجيب على الأسئلة في الامتحانات . ولا يعرف كيف كنت أحصل على هذه الدرجات الكبيرة في بعض العلوم القانونية العويصة . يكفي أنني حصلت على تقدير امتياز في مادة تنازع القوانين في الليسانس وكانت الأغلبية تحصل على تقدير مقبول . والبعض يفشل في الوصول إلى النجاح . ولكن القدرة على الحفظ عندي عند سماع قراءات أمي كانت كفيلة بتقدمي العلمي .

كان عتريس قد استقبل شفيقة أو الدكتورة شفيقة عندما جاءت تطالب برفع دعوى ضد الحكومة لمصادرة عدد من أعداد المجلة التي تحررها . مع أن المقالات التي نشرت وجدت أن فكرتها منشورة في جرائد يومية ولم يتم مصادرتها . وتبني عتريس القضية وأدخلها إلى حجرتي باعتباري صاحب المكتب لأتفق معها على الأتعاب .

دخلت شفيقة على المكتب . انبهرت بجمالها . وطفقـت تشرح القضية من جديد وأنا استمع لها منبهـراً بحلاوتهـا . وأنا مستمع ماهر لكني كنت في ذلك اليوم تائه في جمالها . وعتريس يفند أمامي كل ما يتعلق بخطوات الحكومـة نحـو مصادرتها عدد من مجلتها . قلت في ختام حـديثنا : إذا لـم ترد الحكومة أن تفرج عن العدد فلا سبيل غير التعويض إذا أصرت على موقفها مـن المصـادرة . انبهـرت شـفيقة بقراري . وأنا أقول لعتريس : أرفع دعوى مستعجلة علـى الفور يا عتريس . كنت أعطي الأمر لعتريس لأول مرة في حياتي وكنت لا آمره أبداً كنت أذوب خجلاً . وكنت انتظـر أن يأتي ليعاقبني بكلمات فيها من الشدة مـا يجعلنـي أزداد ذوباناً . غير أن عتريس لم يكن معقداً بدرجة كبيرة وتقبـل الأمر بصدر رحب .

أخذ معه شفيقة ليشرح لها إجراءات الدفاع عنها والطعـن في مصادرة عدد من مجلتها . وسألها : من دلك على هـذا المكتب .؟ .. قالت ضاحكة : زعيمتنا . إنها قريبة أم الأستاذ عفت عبد العاطي . ظن عتريس أنها إحدى المستمعات إلـى شعر الغزل الذي كان يلقيه على النسوة في مجتمعاتهن . كان

عتريس مشايعاً لحقوق المرأة وحرياتهـا . ولكـن كـان لا يرضى عن المرأة القاسية مثل زوجه السابقة و ينادي دائمـاً بعلاج شلل نصف الأمة ويقصد به المرأة . وقد أعجبت بـه شفيقة وبآرائه المستنيرة . ووعدها أن يمدها بمراجـع عـن كفاح المرأة في أنحاء العالم خاصة في أمريكـا وبريطانيـا وفرنسا . وقالت له إنها تعرف كثيراً عن كفاح المـرأة فـي بريطانيا بحكم أنها عاشت هناك فترة طويلة من الـزمن . . ولعل كفاح المرأة الأمريكية كان هو الدافع في سـبيل سـفر شفيقة إلى أمريكا للاطلاع على الحركة النسائية هناك فيمـا بعد .

انتشل صوت ناعم الأستاذ عفت من أفكاره وسمعه يقول : هيا .. قم معي لأدربك .

أجاب عفت : ألا تزهقين من التدريب ؟ ..

سألت لواحظ : ألا تتدرب وأنت تستمتع .

أجاب : ولكني غير قادر على التدريب مع اثنتـين مـن المدربات .

قالت لواحظ : في المدرسة ألم يكن لك مدرس للحسـاب ومدرس للعربي ومدرس للتاريخ وآخر للجغرافيا ؟ ..

(٩)

اقتحمنا مجلس النواب - مجموعة من النسوة باعت نفسها من أجل القضية - قضية تحرير المرأة من ربقة الرجـل . قضية المطالبة بحقوق المرأة وحرياتها . ومساواتها بالرجل . طالبنا بحقوقنا السياسية كاملة . حقي الانتخاب والترشـيح سواء لمجلس النواب أو مجلس الشيوخ . لم تستطع الشرطة أن تبطش بنا . صدرت إليهم الأوامر أن يتركونا نصوم عن الطعام ويزودننا بالماء فقط حتى نكـف عـن إضـرابنا ولا نموت . طالبنا بحقوق مدنية جديدة غريبـة عـن الأسـماع أسماع الرجال . طالبنا بحق العمل والمساواة فيه مع الرجـل . وإجازة وضع وإجازة بعد الوضع . طلبنا بإقامة حضـانة في كل مصنع يزيد فيه عدد العمال عن خمسـمائة عامـل . وأن تتمكن النساء من وضع أبنائهن فيها . طالبنا بألا تزيـد ساعات العمل عن ثماني ساعات أسوة بالـدول المتقدمـة . استمر الإضراب أسبوعاً حتى كادت الزعيمـة أن تمـوت . فأقلعنا عن الإضراب بعد أن وافق رئيس مجلس النواب على الاستجابة لبعض مطالبنا . . وافق النـواب علـى الحقـوق

المدنية وأجلوا النظر في الحقوق السياسية . اعتبرنـا ذلـك مرحلة من مراحل الانتصار . واكتفينا بذلك النصر إلى حين . وسوف نعيد الكرة إذا تلكأ الرجال فـي إقـرار حقوقنـا . خاصة الحقوق السياسية . كان الإضراب قوياً والصوم أقوى . كأن الرجال خافوا على النساء أن يبتلعهن الردى فأسرعوا بإصدار التشريعات المطلوبة .

عدت إلى مجلتي ، اكتب منشوراً ثورياً ضد الحكومـة . نشيد زاخر وعامر بالشعارات الثورية في قالب نثري جميل . وفوجئت بسكرتيرة التحرير تبلغني أن المجلة صـودرت . وضاع علينا استرداد ثمنها . وإذا استمر الوضع على ذلـك فإن أزمة مالية كبيرة سوف تعترض المجلة لإعادة إصدارها . توقفت وسط بكاء المحررات النشيطات المتدفقات حماسـاً المندفعات نحو المبادئ بصلابة وعزم . كان اندفاعهن فـي نظر السلطات خطيئة . والمطالبة بحقوق النساء ولـو علـى الورق جرم ليس بعده جرم .

طرق عفت الباب ودخل ، وقال : تصوري أن عتريس قد قدم التظلم إلى القضاء دون أن ندري . هكذا . أرسل ورقـة

صغيرة مع الحارس ويقول لك لا تخشى شـيئاً . إن وراءك رجالاً .

هزت رأسها وقالت : إن عتريس رجل فعلاً .

تقدم منها وقال : ألست رجلاً ؟ ..

قالت شفيقة في سخرية : أنت سيد الرجال . لمس ذراعها فانتفضت ، وهي ترتدي ملابس شفافة قطنية تظهر مفاتنها . وحرارة الجو لا تطاق : وكيف أكون سيد الرجال . وأنـت بعيدة عني .

قالت في نفور ممزوج بالرغبة : وهل أنا تباعدت عنك ؟ ..

قال وهو يطبق أول درس علمته له لواحظ : إذا تباعـدت فاقتربي . وإذا اقتربت لا تتباعدي .

لم يقترب منها رجل من قبل . كانت أرضـاً خصـبة لا يفكر في زراعتها فلاح . وحينما ارتبطت بفلاح لـم يكـن ماهراً . وهاهو الفلاح قد تعلم العذق والحرث وبذر البذور . وأين تعلم هذا كله وقد مضى على الزواج حين من الـدهر ، والبوابة مقفلة ولا يوجد مدربون . كان قبل زمن الاعتقـال يدخل ويخرج ينظر إلى الأرض بخجل . وهاهو الآن يمارس

حقه في الزراعة بقوة كأنه فتوة ابن عشرين سنة . أين تدرب على ذلك الحرث المتواصل حتى يسوى الأرض ؟ ..

فكرت أن تتنقل إلى حجرته مادام قد عاد سـوياً . لكـن عليها أن تتمهل ربما ما يفعله إنما هو فعل عارض . ويعود بعده إلى طبيعته المنطوية .

أصبحت وظيفتي الخدمة العامة . وانتسبت إلـى جمعيـة نهضة المرأة . لأعمل بها متطوعة . دكتـوراه فـي الأدب الإنجليزي محلها الجامعة أصبحت عاملة في جمعية خيريـة للدفاع عن حقوق المرأة . لكني لم أيأس . هكذا هو الرجـل مستبد بطبعه منذ تنازلت المرأة عن استبدادها فـي الحيـاة العامة (كانت تعمل رئيسة قبيلة فـي الأزمنـة الغـابرة) واستمرت تمارس استبدادها داخل المنزل ، ذلك الذي يجمعها بالرجل والأبناء والأحفاد والوالدين .

نادتني رئيسة الجمعية السيدة الزعيمة - كما كنـا نحـن نسوة الجمعية نسميها - وقالت لي أمام العضوات : استعدي يا شفيقة سوف تسافرين إلى أمريكا للاضطلاع على مجريات الأمور في شأن المرأة في الولايات المتحـدة الأمريكيـة . وتتعرفين هناك على ما حصلت عليه المـرأة مـن حقـوق وحريات . جمعية مدافعة عن حقوق المرأة في القاهرة تتفق مع جمعية مدافعة عن هذه الحقوق في واشنطن إقليم كولومبيا العاصمة الأمريكية على تبادل الزيارات بـين العضـوات . وكانت فرصة أن أتعرف على بانوراما الحقوق والحريـات

العامة للمرأة الأمريكية . وسوف أراجع هناك مـا وضـعه الأستاذ عتريس الأعشى الشاعر والمحامي من تعليم نظـري عن حقوق وحريات المرأة في أمريكا وذلـك مـن الواقـع الأمريكي نفسه .

شكرتها وهنأتني العضوات . ولو أني رأيت في وجوههن شبه حسد لأنهن لم ينلن ذلك الشرف . وسـمعنا الزعيمـة تقول إن الزيارات ستتكرر وسوف ينلن هذا الشرف . ولعل حسدهن كان بسبب قضائي في بريطانيا سنوات طويلة حتى حصلت على الدكتوراه ، وكان الأجدر أن تسافر واحدة لـم يسبق لها السفر . ولكنها كانت دكتوراه وضع فيها أبي أموالاً كثيرة ولم تصرف عليها الدولة مليماً واحداً .

هناك في أمريكا بدأت أزور الولايات المختلفة : نيويورك - سان فرانسيسكو - لوس انجلوس - ميتشجن - واشـنطن - كنت أسافر من الجنوب في هيوستن إلى أقصى الشمال في ماسوشيستس . ولا تتعمد الجمعية أن أتمتع بالحر في وقـت الشتاء وبالبرد وقت الصيف .

عدت ومعي حصيلة من الكتب وقليلاً من المال . وقدمت تقريراً مفصلاً برحلتي عما سمعته وشـاهدته ورأيتـه فـي

الولايات المتحدة الأمريكية لدرجة أن الزعيمة أشرت عليـه بالنشر في مجلة الجمعية . غير أنه لم يطبع إلا على الآلـة الكاتبة فقط وانزوى بعد ذلك في أضابير الجمعية لأن مجلـة الجمعية توقفت عن الصدور إذ أن معين التبرعـات نضـب والقدرة المالية ضعفت .

لم تكن الثروة التي تركها أبي لي - مثلما ترك لأخواتي - كافية لان أعيش وأطبع منها كتباً وأصدر مجلة ، فاكتفيت بالكتابة لعل يوما يأتي أستطيع فيه أن اطبع كل ما أكتب .

دخلت شفيقة المطبخ ، وهي مبتهجة . اليـوم أصـبحت امرأة بعد أن عاشت عذراء دهراً طويلاً . كيـف تجـرأ عفت لهذه الدرجة ؟ . وكان يخجل من خياله ؟ .. خلع جلـد الحياء وارتدى لباس الجرأة . كان الاعتقال سبباً من أسـباب تهوره وتشجع ليقتحم عالم المرأة .

سألت شفيقة الطباخ : ماذا أعددت لنا من طعام يـا عـم مدثر ؟ ..

قال : أعددت اليوم محشيا من الكوسة . وبفتيك .

قالت : أصبحت لا هواية لنا إلا الأكل يـا عـم مـدثر . الاعتقال قتل فينا كل شيء إلا الرغبة في الطعام .

قال المدثر ممتعضاً : لا أدري سبب اعتقال سيدة مجاهدة مثلك . لكن الاعتقال في الدار خير من الاعتقال في معتقل . هناك يكون اليوم للشخص سنة . والفـراش هـو الأرض . والجو خانق . والشرب من جردل . و(...) في جـردل آخر .

تساءلت شفيقة : لا أعرف ماذا فعلت لهم .. هل مقـالاتي مؤثرة لهذه الدرجة ؟ .. أيظنون أنها قادرة على إثارة النساء ؟ .. ومن يقرأ يا عم مدثر حتى يثور ؟ ..

(١١)

كانت شفيقة الدري تزور مكتبنا كثيراً . وتجلـس معـي تتكلم عن حقوق المرأة وحرياتها ، كأن ليس هنـاك قضـية غير قضيتها . أما أنا فلم يكن في ذهني أي قضايا . وكـان يشاركها عتريس الأعشى الحديث . يبدو أنه متيم بها ، وتبدو متيمة به . لكن ما الأسباب الخفية في أنها مالت إلـي . مالت إلى ذلك المحامي صاحب المكتب الصـامت الـذي لا يتكلم إلا قليلاً وإذا ما طلب منه الرد على سؤال ، أحتـار ، وأمتعض ، لكن إذا ما كان السؤال يخص قاعدة معينة فـي القانون ، يتدفق في سردها - دون تحليل أو تفسير - كأنـه آلة من الآلات المسماة بالحاسب الآلي . وذلك إذا طُلب منـه أن يأتي بقاعدة معينة في قانون معين ، فيظهرها على الشاشة وإذا طُلب منه أن يقرأها قرأها بدقة . إن تفسـيري الوحيـد على إقدام شفيقة على الزواج مني ، هو أني عرضت عليهـا الزواج ، أما عتريس الأعشى فلم يعرض . كانـت العقـدة النفسية من النساء التي بثتها زوجته الأولى فيه ، تلك التـي أنجبت ابنته الأولى وحرمته منها ثم طلبت الطلاق وأصرت على حضانة الطفلة ، تمنعه تلك العقدة من التفكير في النساء

مرة أخرى . قد يلهو معهن ولكن لا يتزوجهن . وشفيقة لـم تكن فتاة لاهية لذلك وافقت على أن تتزوجني لأني جاد فـي طلبي . ربما ظنت أنها قد تطويني تحت إبطها . ولـم تكـن تعتقد أنني خامل وخجول كبير . اكتشفت ذلك في اليوم الأول . لعلها فوجئت هذه الأيام حينما دلفت إلى حجرتها ومارست معها الحب وسط اندهاشها بعد تدريب طويل مع لـواحظ . ولم تكن تعرف أنني أتدرب في مدرسة الشغالة . لم تسـتطع أن تمانع لأني زوجها ولأنها كانت تنتظر مـن زوجهـا أن يفعل ذلك . ولعلها لا تعرف أنني تدربت بعمق على هـذه الممارسة في الوقت الراهن .. في زمن الاعتقال . ولو كان الاعتقال خارج الدار لما كان هناك تدريب . ولم تكن أمي قد ربتني على الحب . دربتني على تذوق الطعام .. على اختيار مواعيد النوم المبكر .. على ارتداء أفخر الثياب . لكنها لـم تدربني على العلاقات الإنسانية كالحب والصداقة والزمالة . حتى التعرف إلى الناس لم تدربني عليه . كانت تسلمني إلى المدرسة وتتسلمني منها وتأخذني إلى البيـت . وتقـرأ لـي دروسي حتى الساعة الثامنة ثم تضعني في مخـدعها لأنـام وتسلمني من جديد إلى المدرسة . إلى أن ظهرت لواحظ فجأة

لتدربني على الحب . يبدو أن لواحظ زهقت مـن أن يكـون بجانبها رجل خامل مثلي . كانت تراني - بعد الاعتقال - لا أتكلم . وانظر طويلاً إلى السقف . ولا أطلع على كتب قديمة لدي مثل سيدتها . أو أحاول أن أرشو الشرطي ليشتري لـي كتباً جديدة . ثم لا أدخل حجرة زوجي . ولا أعقد اجتماعـا معها . فأصرت على أن تلتهمني مادامت أن شفيقة لا تـدنو مني ولا تحاول التهامي . وفي البداية عرفـت السـر فـي عزوفي عن زوجتي إذ وجدتني لا أفقه في الحب شيئاً . لذلك بدأت تدربني وهي واثقة من نتيجة التدريب ستكون امتيازاً .

جاءت لواحظ وأشارت إلى عفت قائلـة : قـم معـي .. لنواصل التدريب .

قال عفت زاهقاً : أنا مرهق .

قالت مؤنبة : كيف أنت مرهق وأنت لم تفعل شيئاً طوال ثلاثة أيام ؟ ..

قال : ليكن التدريب كل أسبوع . لاحظي أننـي أتـدرب على يدي مدربتين . إحداهما ثائرة والأخرى باردة .

غير أن لواحظ أصرت قائلة : قم .. لا تدعني أعلن أنـك تتدرب على يدي . فتطردني المدام ولا تجد مدرباً بعد ذلـك اليوم .

ضحك عفت وهو يشيح بها ويقول : التدريب تحت يديك حرام . لا يجوز أن نقترفه .

قال لواحظ : وما هو الحرام فيه ؟ ..

قال عفت وهو يعرض عنها : أولاً قد تحملين .. ويـأتي الولد للدنيا بطريق غير شـرعي . وثانيـاً سـوف تعـرف الدكتورة فتطلب الطلاق . وأنا لا أريد أن أطلقها .

قالت لواحظ : أولاً أنت غلطان .. لن أحمل وإلا كنت قد حملت منذ شهور . ثانياً لن تعرف المدام لأنها تقوم من النوم لتنام مرة أخرى . فمتى إذن سوف تعرف ؟ ..

قال عفت : والإرهاق الذي أشعر بـه نتيجـة التـدريب المستمر .. ألا يحتاج إلى راحة .

قالت لواحظ : إن المدثر يصنع الطبيخ جيداً . فتغدى حتى لا تشعر بالإرهاق .. هيا .. هيا .. لا تكن كسولاً خاملاً .

(١٢)

سرب لي الشرطي الجريء خطاباً من عتريس الأعشـى جاء فيه أن الحكومة أنكرت أنها تعتقلني وتعتقل شفيقة فـي بيتنا . طلب عتريس من القاضي أن يبـادر بالقيـام برؤيـة الوضع على الطبيعة . وأن يرى الجنديين اللذين يمنعان عفت وشفيقة من الخروج من دارهما . فما كان من القاضي إلا أن أجل القضية إلى أجل يقع فيما بعد الإجازة القضائية . ولعله بذلك يترك الفرصة للحكومة (وزارة الداخلية) أن تسـحب الجنديين الحارسين ، فأبشر يا عفت يا ابـن عبـد العـاطي فلسوف يعطيك ربك فترضى .

حمل عفت الخطاب إلى شفيقة ودخـل عليهـا مكتبهـا ، فرآها قد وضعت نظارة القراءة على عينيها ، وطفقت تكتب . ولم تشعر به إلا وهو يلمس شعرها الحريري ، فارتعدت ، ثم قالت : أرعبتني .!! . . وضع أمامها الخطاب وقال لها : ذلك من عتريس الأعشى .

قرأت الخطاب وقالت : فلنستبشر خيراً .

قال : ماذا تفعلين ؟ ..

قالت : أكتب كتاباً عن حقوق المرأة وحرياتها العامة .

قال : ألن تكفي عن ذلك العبث ؟ .. إن مهما كتبنا فلـن تكون هناك أذان صاغية .

قالت : أنت هكذا لا صلة لك بالواقع .. تقيم في دنيـا ... ...

قاطعها قائلاً : أنا واقعي يا دكتورة .. تصوري مـثلاً أن القاضي انتقل للمعاينة على الطبيعة وكانت وزارة الداخلية قد سحبت الجنديين من الحراسة . وسألنا القاضـي كيـف تـم الاعتقال ولا حراسة عليكما . فنقول له إنه كان هنا جنديان يمنعانا من الخروج فهل يصدق القاضي ؟ .. لـن يصـدق وسوف يحكم بشطب الدعوى . فإذا حكم بذلك عاد من جديد الجنديان والحراسة ستكون على أشدها . فماذا نحن فاعلان ؟ .. سوف نرضخ للأمر الواقع .

قالت : لك حق .. لن اكتب .. ولن أقرأ .. ولن اسـتمع للمذياع .. ولن أفعل شيئاً .

قال لها : إلا الفعل .. عليك به ..

أحمر وجه الدكتورة وتساءلت في نفسها : كيف تبدل هكذا وأصبح جريئاً ؟ ..

انصرف عنت ولم يحاول معها . كان يشعر وقتئذ أنه قائد في جيش انتصر في معركة . لم يتكالب عليها ، رغـم أنـه

رأي في عينيها الرغبة . أصبحنا كالفلاحين ليس لنا هـم إلا ممارسة الجنس . ولكن للأسف لم تحمل حتى الآن كمـا لا تحمل لواحظ . هل العيب عيبي ؟ .. كأنك يا عفت تريـد أن تخرج لإجراء تحاليل . ماذا لو طلبت من وزارة الداخلية أن تأذن لك بالخروج من المعتقل حتى تجري التحاليل ؟ ..

(١٣)

كم كان الزواج فاشلاً يا شفيقة !! ..وكم كان الزمن قاسياً . لقد تقلد العسكر الحكم . وناصبتهم العداء . صارت مجلتي منبراً ضدهم . انتقدهم في كل تصـرفاتهم .. اسـتبدادهم . ديمقراطيتهم المزعومة . خططهم الاقتصادية المغرقـة فـي التفاؤل الناجم عنها فشل ذريع . صار هناك فشل في البيـت وفشل في المجتمع . كم مرة تمت مصـادرة المجلـة حتـى يجبروني على الإفلاس . لكن مصادر الثروة لدي سـاعدتني على الاستمرار حتى كل جيبي . فكرت يوماً أن أطبع المجلة وأقوم بتوزيعها سراً وبالمجان . ولكن إذا أصدرت عدداً بهذه الطريقة فكيف يتسنى لي أن اصدر العدد الجديد .

لم يضربوني . لم يعذبوني . ولم يؤذوني في شيء . كل ما فعلوه هو مصادرة المجلة . تركوني أكتب وأطبع وعنـد التوزيع يتدخل الرقيب ويأمر بمصادرة كل ما أكتب وكتبته زميلاتي في المجلة . كانوا يريدونني أن اكتب عن الموضة . والمرأة والبيت . والطفل والأم . أكتب عن الأزياء . عـن الفن . أما أن أتكلم في السياسة والدين والحقوق والحريـات والواجبات فذلك حرام . أضف إلى ذلك الكتابة في الاقتصاد

، ذلك الذي خربه الفاسدون . انتقدت يوماً سرقة مجـوهرات العائلة المالكة السابقة فانتفض الجميع ضدي كأني أجرمت . وصودر العدد ليوارى في التـراب أو لعلهـم أحرقـوه . لا أدري ماذا يفعلون به . لعلهم لا يحتفظـون بنسـخة واحـدة لتكون عظة للناس لتقول هذه النسخة : هنـا مـرت امـرأة حاربت بدمها الظلم والاستبداد .

طرق المدثر الباب وسأل :

هل لي كلمة معك ؟ ..

قالت شفيقة : أدخل يا مدثر .

ثم سألته : نعم .. ماذا تريد ؟ ..

كانت منكبة على مكتبها ، تكتب كتاباً عـن حقـوق المرأة وحرياتها العامة . والكتب متناثرة على المكتـب مقلوبة على صفحات معينة ترجع إليهـا . كانـت قـد قرأتها وتريد أن تستفيد منها في كتابتها . وأوراق متناثرة كتبت فيها زبد أفكارها . قال : فكرت أنـا وصـديق أن أنقذك من هذا المعتقل ؟ ..

قالت : كيف يا مدثر؟ ..

أجاب : أما كيف فاتركيها على ذاك الصديق .

سألت : ماذا يعمل ذلك الصديق ؟ ..

قال : إنه واحد من عامة الشعب . معه شهادة عالية لا أعرف اسمها . ويسكن في حينا الشعبي . كان يقرأ مقالاتك ويعجب بها . يوماً جاس بالصدفة على المقهى وسألني : لم لا تكتب الآن سيدتك . كان يعرف أنني أعمل عندك . قلت له إنها ممنوعة من الكتابة . ذلك لأنها معتقلة . سأل أين معتقلها ؟ .. فقلت له : في دارها . استغرب الوضع فقلت له إن بعض زميلاتها أيضاً معتقلات في بيوتهن . ولكن لم يتم إذاعة ذلك السر بعد . نظر إلي وقال : وماذا لو قمت بفك معتقلها . سألته : كيف ؟ .. قال لي سلها إذا كانت تغامر . وسوف تنتقل إلى مكان جميل حيث الخضرة والماء والحياة الجميلة السعيدة .

قالت شفيقة : معنى ذلك أنني لن أعود إلى الكتابة يا مدثر .. والكتابة حياتي .

قال مدثر : اكتبي وأنت هناك ..

قالت شفيقة : إنه منفى آخر ..

قال المدثر : قلت له ذلك .

- قال من الخير أن نكون في سجن مـن صـنعنا ولسوف يكون أرحب من سجن من صنع الآخرين . إن الإنسان يا مدثر مسجون في الكرة الأرضية ولكنه يشعر بالحرية . وكلما ضاق السجن عليه صـار يحـاول أن ينفض عنه القيود . والآن هي في سجنها القائم لا تخرج ولا تدخل تتمشى في دارها فقط . أما في سجنها الجديـد فسوف تمارس حياتها كما تحب . تخرج تدخل . تخوض الأسواق . ولا بأس أن تكتب وتنتظر يوماً أن تنشر فيـه ما تكتب .

(١٤)

في الصباح تم تبديل الوردية . جاء جنديان آخران . وقال أحدهما للآخر : أليس لهذا العذاب من آخـر ؟ .. رد عليـه الآخر قائلاً : لن ينتهي العذاب إلا بنقلهما إلـى السـجن أو المعتقل أو تفك عنهما الحراسة ؟ .. سأل الأول : ولـم تـم اعتقالهما ؟ .. قال الثاني : يبدو أن المرأة تكتـب مقـالات نارية تنتقد فيها نظام الحكم ؟ .. فلم يكن هناك بد من توقيفها عن الكتابة إلا بالاعتقال . وحتى لا يعرف أحد أنها اعتقلـت فتم اعتقالها في منزلها . وتم اعتقال زوجها بالتبعية . قـال الأول : إذن لا فكاك من ذلك الاعتقال .

فجأة برز عقيد شرطة طويل القامة ، مفتول الشـارب ، يبدو عملاقاً ومعه جنديان آخران . وقال للجنديين : هل هذه دار المعتقلة شفيقة الدري ؟ .. عظم الجنديان العقيد . وقـال الأول : نعم يا أفندم . قال وهو يرن الجرس : سوف نأخذها إلى المحاكمة .

تنفس الجندي الأول الصعداء وهو يسر قائلاً : أخيراً .

قال الجندي الثاني لنفسه : إذا ما أودعت المعتقل فسـوف يحجب الاعتقال عن زوجها ونعود إلى الثكنات من جديد .

رن العقيد الجرس وبعد فترة فتحت لواحظ وسألت : أفندم ؟ ..

قال العقيد : أبلغي السيدة شفيقة الدري أن تسـتعد لتـأتي معنا .. اليوم محاكمتها .

دخلت لواحظ لتبلغ سيدتها وتوقظها من نومها الطويـل . اضطربت دقات قلب شفيقة وارتدت ملابسها على عجـل ، بينما يدخل العقيد ويجلس في المدخل والجنـديان المرافقـان واقفان في الخارج ينتظـران لا يحـاولان أن يتكلمـا مـع الجنديين الحارسين .

يتأمل العقيد من بعيد عفت عبد العاطي . ثم يدنو بـبطء ويسأل بصوته الأنثوي : ألن تحاكموني أنا الآخر يا سـيادة العقيد ؟ .. نظر إليه العقيد : من أنت ؟ .. قال عفـت : أنـا زوج الدكتورة شفيقة ومعتقل بالتبعية معهـا . قـال العقيـد مزمجراً : ليس لدى تعليمات إلا أن آخذ السيدة شفيقة الدري إلى المحكمة ؟ ..

دخل عفت وهو يقول : إذا اعتقلت في معتقل آخر فسوف يفرجون عني .. وإذا حكم ببراءتها فسوف يفرجون عني .. أنا معتقل بالتبعية .

جاءت شفيقة ماثلة أمام العقيد . تقدم منهـا جنـدي مـن مرافقي العقيد يريد أن يضع القيد في يديها . نهـاه العقيـد مؤنباً : لا داعي لذلك . لن تفر منكما السيدة يا بجم !! ..

خرجت شفيقة تتقدم العقيد . وقـام الجنـديان الحارسـان بتعظيم العقيد . ونـزل العقيـد ترافقـه شـفيقة والجنـديان المرافقان.

ركبوا جميعاً سيارة جيب غير مكتوب عليها أي إشـارة عسكرية . وانطلقت السيارة يقودها أحد الجنـديين . وعنـد أطراف الضاحية وقفت السيارة ونزل منها العقيد واختفى في مرحاض عمومي ، وقد حمل معه حقيبة صغيرة ، ثم عـاد يرتدي ملابس مدنية . وقد أودع الملابـس العسـكرية فـي الحقيبة وانصرف الجنديان . وانطلق العقيد بالسيارة ومعـه شفيقة الدري . سألت شفيقة : أين تعقد المحكمة ؟ ..

لم يتكلم . فعادت تردد متسائلة : أين ستعقد المحاكمة ؟ ..

قال العقيد مبتسماً : في سراي الحرية .

سألت شفيقة مستغربة ، وهـي تجلـس بجانـب العقيـد المرتدي ملابس مدنية :

وأين سراي الحرية ؟ ..

قال : في طريق الحرية .

قالت مستغربة : عند الشاطئ .. لكنك تتجه إلى الجنـوب .. أنا أعرف ذلك الطريق .

قال العقيد : نحن الآن في الطريق إلى طريق الحرية يـا دكتورة . دعيني أقدم لك نفسي . أنا محسن العيني . ولكنـي لست صاحب القصر العيني (تضحك شفيقة) . أنا نصـير المرأة لأنها طُحنت أجيالاً طويلة . ولو أنها تسـتأهل ذلـك لأنها خبيثة (تستمر شفيقة في الضحك) . وكنت أقرأ لـك وأعجب بمقالاتك . أنت والنسوة الأخريـات . ثـم فوجئـت بالقبض عليكن واعتقالكن قررت أن أحرركن . بـدأت بـك على اعتبار أن عم المدثر يسكن بجانبي ويعمل عندك لـذلك اتفقت معه على أن أنقذك من الاعتقال . ولو فـرض وتـم القبض عليك مرة أخرى ولو أن ذلك مـن المسـتحيل . لا تذكري اسمي (تهز رأسها فرحة) قولي لهم إن عقيداً اسمه لا أذكره . لا تذكري اسمي . جاء إلى شقتي وأخـذني إلـى

المحاكمة وأودعني ذلك البيت الذي سوف نذهب إليه . ظننت أن الأمر من العقوبات الاحترازية . ذلـك تعبيـر قـانوني استعمليه ولا تخافي . كنت أعتقد أنه تم نقلي من معتقل هـو داري إلى معتقل آخر هو تلك الدار التي وجدتموني فيهـا . سنصلها بعد ساعات من السفر . أما كيـف كنـت تـأكلين وتشربين فقد قامت على رعايتي سيدة أظنها سجانة .

سألت شفيقة : معني ذلك أنك تنقلني من معتقل إلى آخر ؟ ..

قال : في المعتقل الأول كنت لا تخرجين ولا تدخلين أما في المعتقل الجديد فأنت حرة فيه . معتقل مفتوح . كـل مـا اطلبه منك أن تكفي عن النشر . إذا أردت أن تكتبي فـاكتبي وإذا أردت أن تنشري ما تكتبين فأعطيني الأصول وسـوف أطبعها لك وأوزعها تحت اسم مستعار . مثلما سمت نفسـها الدكتورة بنت الشاطئ فسمي نفسك بنت الصحراء مثلاً .

سألت : هل الدار الجديدة قريبة من الصحراء ؟ ..

قال : لا .. يمكن أن تسمي نفسك بنت الخضـرة علـى أساس أن الحقول قريبة منك . أنت ستكونين وسـط حقـول خضراء .. الدار لي .. بعيدة عن العمران لكـن يمكـن أن

تخرجي محجبة . والحجاب هنا ليس أمراً إنما هو حيلة فنية للاختباء من الشرطة .

سألت : وهل سوف تتحمل مسئولية النشر ؟ ..

قال : أنا أتحمل كل شيء . إن من عباد الله من يفوت في الحديد وأنا بعون الله منهم . إذا كتبت كتاباً فسوف يطبع في مطبعة لا يعرفها أحد وسوف ينشره ناشر لا يعرفه أحد وإذا وزع فسوف يوزعه موزع لا يعرفه أحد . ولن يتمكن أحـد من مصادرته لأنهم سوف يجدونه مرة واحدة في كل مكـان يباع . فحتى إذا جمعوا نسخه فسوف تكون كل النسـخ قـد بيعت واختفت من السوق . ولا أعتقد أنهم سـوف يـدخلون البيوت للتفتيش عنه .

سألت : ألهذه الدرجة تثق في كلامي ؟ ..

قال : أنا أثق في فعلي .

قالت : لو عرف كل الكتاب طريقتك لتهافتوا عليك .

قال ضاحكاً : الحمد لله أن أحداً لا يعرف .

سألت : وكيف سوف تصلني الكتب لأوثق كلامي .

قال : لا تخشي أمراً . اكتبي لي القائمة .. وأنا أحضرها لك . سأزورك كل شهر .

سألت : وكيف سأعيش ؟ ..

سأل : أليس لديك أموال وعقارات ؟ ..

قالت : نعم .. ولكن كيف سأحصل على ريعها . إنهم سوف يعرفون من يحصلها وسيعرفون بالضرورة أين أسكن لأنهم سوف يتتبعون من يحصل على الريع وسيعاد القبض علي .

قال : لا تخافي .. وراءك أسود . سوف تبيعين لي كل العقارات والأموال . وسوف أعطيك ريعها كما لو كنت مالكة لها .

كم من امرأة معتقلة مثلي في دارها ؟ . هل ستجد من ينقذها مثل محسن العيني ؟ .. هناك من ستموت كمداً لأن حريتها احتبست . وهناك من لن تطيق الحياة وتقفز من نافذتها لتموت خاسرة دينها وخاسرة حياتها . وهناك من سوف تبصم للاستبداد وستطلب العفو وتركع عند قدميه لتقول كلمة لا حق فيها . والآن يا شفيقة حان وقت التمتع بالحقول الخضراء . والدار الآمنة . والحياة الرغدة . لقد انتهى زمن الاعتقال .. إننا الآن في زمن الحرية .

الرياض في ٥ نوفمبر ٢٠٠٢

المؤلفات :

الكتب السياسية والاقتصادية :

الرقابة السياسية على أعمال السلطة التنفيذية ، مكتبة عـالم الكتب بالقاهرة ١٩٨٣ .
العمالة وفرص العمل ، كتاب الأهرام الاقتصادي ، ١٩٩٨ .
القرارات الاقتصادية بين الفرد والمجتمع ، كتـاب الأهـرام الاقتصادي ، ٢٠٠٠ .
الانتخابات ، موسوعة الشباب السياسية ، ٢٠٠١ .
* الدول بين التخلف والتقدم ، كتاب الأهرام الاقتصـادي ، ٢٠٠٢

الروايات والمجموعات القصصية

اللقمة في يد النساء ١٩٧٧
بذور ١٩٨١
وقائع غير مرئية تحت الشمس ١٩٨٧
لآلئ الزمن الخالي ١٩٧٨
خذ الحذر ١٩٨٨
غالباً ما يتفتح الزهر ١٩٨٨
السفر إلى زمن ميت ١٩٨٩

بعد فوران الحمم ١٩٨٩
الدكاكين الصغيرة ١٩٩٠
لو أعلنت الحقيقة ١٩٩١
نفحات من العطر المعتق ١٩٩١
العودة إلى الحياة ١٩٩١
مازلت أتألم ١٩٩٢
انقلاب في الثلاثين ١٩٩٣
الجري وراء الأهواء ١٩٩٣
الميراث ١٩٩٤
سلام الذئاب والحملان ١٩٩٤
المصيدة الكبرى ١٩٩٥
شقة الهوى والهوان ١٩٩٦
(صدرت بتمويل من اتحاد كتاب مصر)
الحب بالإكراه ١٩٩٩صدرت في سوريا
ليالي الزعبلاوي ١٩٩٩ صدرت في سوريا
ملكة الأرخبيل ١٩٩٩صدرت في سوريا
دوامة بلا حدود١٩٩٩ في سوريا و٢٠٠٠ في مصر
الهجرة من المستنقع ١٩٩٩
مهاجر من إسرائيل ٢٠٠٠
الهارب من النار ٢٠٠٢
الخداع يعود بثوب جديد ٢٠٠٢
فندق الشقاء الأزرق٢٠٠٢
الميت الحي ٢٠٠٢

أين الكموني ٢٠٠٢
المتعة عند الغروب ٢٠٠٢
الأخوان نار ونور ٢٠٠٢
حرب الصقور ٢٠٠٤
لغة بلا كلمات ٢٠٠٤
بين المهمشين ٢٠٠٤
الخطيئة والندم ٢٠٠٤

دار النشر الإلكتروني

مؤلفات سياسية واقتصادية	روايات ومجموعات قصصية
الطريق إلى الإصلاح السياسي ٢٠٠٥	عبور الخط الأحمر ٢٠٠٥
توصيات اقتصادية ٢٠٠٥	ذكريات فضيلة ودليلة ٢٠٠٥
السلطات العامة ٢٠٠٥	اعترافات الورد والشوك ٢٠٠٥
السيادة بين الاقتصاد والسياسية ٢٠٠٥	الأهوج٢٠٠٥
قضايا دستورية ٢٠٠٥	أيامي الأخيرة ٢٠٠٥
	كشف الماضي ٢٠٠٥
	أخبار الشخصيات البارزة ٢٠٠٥
	الاعتقال في الدار ٢٠٠٥